/ سورة المؤمنين [١٣٠و]

مكّيّة، وهي مائة وتسع عشرة آية، وثماني عشرة آية[١] عند الكوفيّين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ "الفلاح": الفوز بالمرام، والنجاةُ عن المكروه. وقيل: البقاء في الخير. و"الإفلاح": الدخول في ذلك، كـ"الإبشار" الذي[٢] هو الدخول في البِشارة. وقد يجيء متعدّيًا بمعنى "الإدخال فيه"، وعليه قراءة مَن قرأ على البناء للمفعول.[٣]

وكلمة ﴿قَدْ﴾ ههنا لإفادة ثبوت ما كان متوقَّعَ الثبوت مِن قبلُ، لا متوقَّعَ الإخبار به ضرورةَ أنّ المتوقَّع مِن حال المؤمنين ثبوتُ الفلاح لهم، لا الإخبار بذلك، فالمعنى: قد فازوا بكلّ خير، ونجَوا مِن كلّ ضَير، حسبما كان ذلك متوقَّعًا مِن حالهم، فإنّ إيمانهم وما تفرّع عليه مِن أعمالهم الصالحة مِن دواعي الفلاح بموجَب الوعد الكريم، خلا أنّه إن أريدَ بالإفلاح حقيقةُ الدخول في الفلاح الذي لا يتحقّق إلّا في الآخرة فالإخبارُ به على صيغة الماضي للدلالة على تحقّقه لا محالةَ بتنزيله منزلةَ الثابت، وإن أريدَ كونهم بحالٍ تستتبعه البتّة فصيغةُ الماضي في محلّها.

وقُرئ: "أَفْلَحُوا"[٤] على الإبهام والتفسير، أو على "أكَلوني البَراغيثُ". وقُرئ: "أَفْلَحُ" بضمّةٍ اكتُفِي بها عن الواو،[٥] كما في قولِ مَن قال:

---

١ ط - آية؛ س - وثماني عشرة آية.

٢ س - الذي.

٣ أي: "أُفْلِحَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

٥ هي عين القراءة السابقة، والواو محذوفة في اللفظ للضرورة، قال أبو حيّان: «وفي كتاب

ولـــو أنّ الأطِـــبّـــا[1] كـــانُ حَـولِـي[2]

والمراد بـ"المؤمنين" إمّا المصدِّقون بما عُلم ضرورةً أنّه مِن دين نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم مِن التوحيد والنبوّة والبعث والجزاء ونظائرها، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ وما عُطف عليه صفاتٌ مخصِّصة لهم، وإمّا الآتون بفروعه أيضًا، كما يُنبئ عنه إضافةُ الصلاة إليهم، فهي صفات موضّحة أو مادحة لهم حسب اعتبار ما ذكر في حيّز الصلة مِن المعاني مع الإيمان إجمالًا أو تفصيلًا، كما مرّ في أوائل سورة البقرة.

[١٣٠ظ] و"الخشوع": الخوف والتذلّل، أي: خائفون مِن الله عزّ وجلّ، / متذلّلون له، ملزِمون أبصارَهم مساجدَهم. رُوي أنّه عليه السلام كان إذا صلّى رفع بصره إلى السماء، فلمّا نزلت رمى ببصره نحو مسجده.[3] وأنّه رأى مصلّيًا يعبث بلحيته فقال: «لو خَشع قلب هذا لَخَشعت جوارحه».[4]

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ﴾ أي: عمّا لا يَعنيهم مِن الأقوال والأفعال ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ أي: في عامّة أوقاتهم، كما يُنبئ عنه الاسم الدالّ على الاستمرار، فيدخل في ذلك إعراضُهم عنه حالَ اشتغالهم بالصلاة دخولًا أوّليًّا، ومدارُ إعراضِهم عنه ما فيه مِن الحالة الداعية إلى الإعراض عنه، لا مجرّدُ الاشتغال بالجِدّ في أمور الدين

ابن خالَوَيه مكتوبًا بواو بعد الحاء، وفي **اللوامح**: "وحذفت واو الجمع بعد الحاء لالتقائهما في الدرج، وكانت الكتابة عليها محمولة على الوصل، نحو: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ [الشورى، ٢٤/٤٢]"». **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٤٦/٧.

١ س: الأطبّاء.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ١٧٤/٣. قال أبو حيّان بعد نقله عن الزمخشري استشهادَه بهذا البيت: «وليس بجيّد؛ لأنّ الواو في "أَفْلَحُ" حذفت لالتقاء الساكنين، وهنا حذفت للضرورة، فليست مثلَها». **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٤٦/٧. | وتمام البيت:

وكـــان مـع الأطـبّـاء الـشـفـاءُ

وهو بغير نسبة في **الجمل في النحو** للخليل، ص ٢٣٢؛ **والحيوان** للجاحظ، ١٦٠/٥.

٣ **الكشّاف** للزمخشري، ١٧٥/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٨٢/٤. وأخرجه الحاكم في **المستدرك**، ٤٢٦/٢ (٣٤٨٣)، بلفظ: «فَطأطأ رأسَه».

٤ **نوادر الأصول** للحكيم الترمذي، ١٧٢/٢. وأخرجه ابن أبي شيبة في **المصنّف**، ٨٦/٢ (٦٧٨٧)، موقوفًا على سعيد بن المسيّب.

كما قيل،[1] فإنّ ذلك ربّما يوهم أن لا يكون في اللغوِ نفسِه ما يزجرهم عن تعاطيه، وهو أبلغُ مِن أن يقال: "لا يلهون" مِن وجوه؛ جعلِ الجملة اسميَّةً، وبناءِ الحكم على الضمير، والتعبيرِ عنه بالاسم، وتقديمِ الصلة عليه، وإقامةِ الإعراض مُقام الترك؛ ليدلّ على تباعدهم عنه رأسًا مباشرةً وتسبّبًا، وميلًا وحضورًا، فإنّ أصله: أن يكون في عُرضٍ غير عُرضه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ وصفُهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة للدلالة على أنّهم بلغوا الغاية القاصية مِن القيام بالطاعات البدنيّة والماليّة، والتجنّبِ عن المحرّمات وسائرِ ما يوجب المروءةُ اجتنابَه. وتوسيط حديث الإعراض بينهما لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة.

و"الزكاة" مصدر؛ لأنّه الأمر الصادر عن الفاعل، لا المحلّ الذي هو موقعه. ومعنى الفعل قد مرّ تحقيقه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة، ٢/٢٤]، ويجوز أن يراد بها العين على تقدير المضاف.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ ممسكون لها، فالاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ مِن نفي الإرسال الذي يُنبئ عنه الحِفظ، أي: لا يرسلونها على أحد / إلّا على أزواجهم. وفيه إيذان بأنّ قوّتهم الشهويّة داعية لهم إلى ما [١٣١و] لا يخفى، وأنّهم حافظون لها مِن استيفاء مقتضاها، وبذلك يتحقّق كمال العفّة.

ويجوز أن يكون ﴿عَلَىٰٓ﴾ بمعنى "مِن"، وإليه ذهب الفرّاء،[2] كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [المطففين، ٢/٨٣]، أي: حافظون لها مِن كلّ أحد إلّا مِن أزواجهم. وقيل: هي متعلّقة بمحذوف وقَع حالًا مِن ضمير ﴿حَٰفِظُونَ﴾،

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/١٧٥.

٢ انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢/٢٣١.

أي: حافظون لها في جميع الأحوال إلّا حالَ كونهم والِين أو قوّامين على أزواجهم. وقيل: بمحذوف يدلّ عليه ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، كأنّه قيل: يلامون على كلّ مباشَر إلّا على ما أُطلق لهم، فإنّهم غير ملومين.

وحملُ الحفظِ على القَصر عليهنّ ليكون المعنى: حافظون فُروجهم على الأزواج لا يتعدّاهنّ، ثمّ يقال: غير حافظين إلّا عليهنّ، تأكيدًا على تأكيد؛[١] تكلّفٌ[٢] على تكلّف.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: سراريّهم، عُبّر عنهنّ بـ﴿مَا﴾ إجراءً لهنّ لمملوكيّتهنّ مُجرى غيرِ العقلاء، أو لأنوثتهنّ المُنبئة عن القصور.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تعليل لِمَا يفيده الاستثناء مِن عدم حفظ فروجهم منهنّ، أي: فإنّهم غير مَلومين على عدم حفظها منهنّ.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن الحدّ المتّسع، وهو أربع مِن الحرائر، وما شاء مِن الإماء، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان، المتناهون فيه. وليس فيه ما يدلّ حتمًا على تحريم المتعة، حسبما نقل عن القاسم بن محمّد،[٣] فإنّه قال: «إنّها ليست زوجةً له، فوجب ألّا تحلّ له، أمّا أنّها ليست زوجةً له فلأنّهما لا يتوارثان بالإجماع،[٤] ولو كانت زوجةً له لَحَصل التوارث لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ [النساء، ١٢/٤]، فوجب أن لا تحِلّ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾»؛[٥] لأنّ لهم أن يقولوا: إنّها زوجة له في الجملة. وأمّا أنّ كلّ زوجة ترِث فهم لا يسلّمونها، وأمّا ما قيل مِن أنّه إن أريدَ لو كانت زوجةً

---

١ انظر: **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، ٣١٩/٦.

٢ خبر "حَملُ".

٣ هو القاسم بن محمّد بن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، القرشي، التيمي، البكري، المدني، أبو محمّد (ت. ١٠٧هـ/٧٢٥م)، الإمام، القدوة، الحافظ، الحجّة، عالم وقته بالمدينة مع سالم وعكرمة، ولد في خلافة عليّ رضي الله عنه، ورُبّي في حِجر عمّته أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وتفقّه منها، وأكثرَ عنها. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٥٣/٥؛ **والأعلام** للزركلي، ١٨١/٥.

٤ م ط س - بالإجماع ["صح" في هامش م س].

٥ في الآية السابقة. | **تفسير الرازي**، ٧١/٢٣.

حالَ الحياة لم يُفد، وإن أريدَ بعد الموت فالملازمة ممنوعة، فليس له معنى محصّل. نعم لو عُكِس لكان له وجه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾

/ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ لِما يُؤتمَنون عليه ويُعاهَدون مِن جهة الحقِّ أو الخلقِ ﴿رَٰعُونَ﴾ أي: قائمون عليها حافظون لها على وجه الإصلاحِ. وقُرئ: "لِأَمَانَتِهِمْ".[1] [١٣١ظ]

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾ المفروضة عليهم ﴿يُحَافِظُونَ﴾ يواظبون عليها، ويؤدّونها في أوقاتها. ولفظ الفعل فيه لِما في الصلاة مِن التجدّد والتكرّر، وهو السرّ في جمعها. وليس فيه تكرير، لِما أنّ الخشوع في الصلاة غيرُ المحافظة عليها. وفصلُهما للإيذان بأنّ كلًّا منهما فضيلة مستقلّة على حيالها، ولو قُرِنا في الذِّكر لربّما توهّم أنّ مجموع الخشوع والمحافظة فضيلة واحدة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار اتّصافهم بما ذُكر مِن الصفات. وإيثارها على الإضمار للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم ونزولهم منزلةَ المشار إليهم حِسًّا. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بعلوّ طبقتهم وبُعد درجتهم في الفضل والشرَف، أي: أولئك المَنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أي: الأحِقّاء بأن يُسمَّوا وُرّاثًا، دون مَن عداهم ممّن وَرِث رغائب الأموال والذخائر وكرائمَها.

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ بيان لِما يَرثونه، وتقييدٌ للوِراثة بعد إطلاقها، وتفسيرٌ لها بعد إبهامها، تفخيمًا لشأنها، ورفعًا لمحلِّها. وهي استعارة لاستحقاقهم "الفردوس" بأعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم للمبالغة فيه.

---

١ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

وقيل: إنّهم يرثون مِن الكفّار منازلَهم فيها حيث فوّتوها على أنفسهم؛ لأنّه تعالى خلق لكلّ إنسان منزلًا في الجنّة ومنزلًا في النّار.

﴿هُمْ فِيهَا﴾ أي: في الفردوس. والتأنيث لأنّه اسم للجنّة، أو لطبقتها العليا، وهو البستان الجامع لأصناف الثمر. رُوي أنّه تعالى بنى جنّة الفردوس لَبِنةً مِن ذهب، ولَبِنةً مِن فضّة، وجعل خِلالها المِسكَ الأذفَر. وفي رواية: ولَبِنةً مِن مِسك مُذرًّى، / وغرس فيها مِن جيّد الفاكهة وجيّد الريحان.[1] [١٣٢و]

﴿خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبدًا. والجملة إمّا مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها، وإمّا حال مقدّرة مِن فاعل ﴿يَرِثُونَ﴾، أو مفعوله، إذ فيها ذِكر كلّ منهما. ومعنى الكلام: لا يموتون ولا يخرجون منها.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ شروع في بيان مَبدأ خلق الإنسان وتقلّبه في أطوار الخِلقة وأدوارِ الفطرة بيانًا إجماليًّا إثرَ بيان حال بعض أفراده السعداء. و"اللام" جواب قسم، و"الواو" ابتدائيّة. وقيل: عاطفة على ما قَبلها. والمراد بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الجنس، أي: وباللهِ لقد خلقنا جنس الإنسان في ضمن خلق آدم عليه السلام خَلقًا إجماليًّا حسبما تحقّقتَه في سورة الحجّ وغيرها.[2] وأمّا كونه مخلوقًا مِن سلالات جُعلت نُطَفًا بعد أدوار وأطوار[3] فبعيدٌ.

﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ "السُّلالة": ما سُلَّ مِن الشيء واستُخرِجَ منه. فإنّ "فُعَالة" اسم لِما يحصل مِن الفعل، فتارة تكون مقصودًا منه، كـ"الخُلاصة"، وأخرى غير مقصود منه، كـ"القُلامة" و"الكُناسةِ"، و"السُّلالةُ" مِن قَبيل الأوّل، فإنّها مقصودة بالسَّلّ.

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/١٧٨. وفي سنن الترمذي، ٤/٦٧٢ (٢٥٢٦)، عن أبي هريرة، قال: قلت: «الجنّة ما بناؤها؟» قال: «لَبِنة مِن فضّة ولَبِنة مِن ذهب، ومِلاطها المِسك الأذفَر، وحَصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران»...

٢ وفي هامش م: مِن سورة طه وسورة مريم وغيرهما. «منه». | مريم، ١٩/٩؛ طه، ٢٠/٥٥؛ الحجّ، ٢٢/٥.

٣ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/٨٣.

و﴿مِن﴾ ابتدائيّة متعلّقة بالخَلق. وما في قوله تعالى: ﴿مِن طِينٍ﴾ بيانيّة متعلّقة بمحذوف وقعَ صفة لـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾، أي: خلقناه مِن سُلالة كائنة مِن طين. ويجوز أن تتعلّق بـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ على أنّها بمعنى "مسلولة"، فهي ابتدائيّة كالأولى.

وقيل: المراد بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ آدم عليه السلام، فإنّه الذي خُلق مِن صفوةٍ سُلَّت مِن الطين. وقد وقفتَ على التحقيق.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الجنس باعتبار أفراده المغايِرة لآدم عليه السلام، أو جعلنا نسله، على حذف المضاف إن أريدَ بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾[1] آدم عليه السلام ﴿نُطْفَةً﴾ بأن خلقناه منها. أو ثمّ جعلنا السّلالة نطفة، والتذكيرُ بتأويل الجوهر، أو المَسلول، أو الماء.

﴿فِى قَرَارٍ﴾ أي: مستقَرّ، وهو الرحِم، عُبّر عنها بالقرار الذي هو مصدر مبالغةً. وقوله تعالى: ﴿مَّكِينٍ﴾ وصفٌ لها بصفة ما استقرّ فيها، مثل: / "طريق سائر"، أو بمكانتها في نفسها، فإنّها مُكِّنت بحيث هي وأُحرِزت. [١٣٢ظ]

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: دمًا جامدًا بأن أحَلْنا النطفةَ البيضاء علقةً حمراء. ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي: قطعةَ لحم لا استبانةَ ولا تَمايزَ فيها، ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ﴾ أي: غالبَها ومعظمَها أو كلَّها ﴿عِظَٰمًا﴾ بأن صلّبناها وجعلناها عَمودًا للبدن على هيئاتٍ وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة، ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ﴾ المعهودةَ ﴿لَحْمًا﴾ مِن بقيّة المضغة، أو ممّا أنبتنا عليها بقدرتنا ممّا يصل إليها، أي: كسونا كلّ عظم مِن تلك العظام ما يليق به مِن اللحم على مقدار لائقٍ به وهيئة مناسبة له. واختلاف العواطف للتنبيه على تفاوت الاستحالات،

---

[1] في الآية السابقة.

وجمع العظام لاختلافها. وقُرئ على التوحيد فيهما[١] اكتفاءً بالجنس، وبتوحيد الأوّل فقط،[٢] وبتوحيد الثاني فحسب.[٣]

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ هي صورة البدن، أو الروح، أو القوى بنفخه فيه، أو المجموع. و﴿ثُمَّ﴾ لكمال التفاوت بين الخَلقَين. واحتجّ به أبو حنيفة رحمه الله على أنّ مَن غَصَب بَيضةً فأفرَخت عنده لزِمه ضمان البَيضة، لا الفَرخ؛ لأنّه خَلق آخر.[٤]

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ فتعالى شأنه في علمه الشامل وقدرته الباهرة. والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعارِ بأنّ ما ذكر مِن الأفاعيل العجيبة مِن أحكام الألوهيّة، وللإيذان بأنّ حقَّ كلِّ مَن سَمِع ما فُصِّل مِن آثار قدرته عزّ وعلا أو لاحظه أن يسارع إلى التكلّم به إجلالًا وإعظامًا لشئونه تعالى.

﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ بدَل مِن الجلالة. وقيل: نعت له بناءً على أنّ الإضافة ليست لفظيّة.[٥] وقيل: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو أحسن الخالقين خَلقًا، أي: المقدَّرين تقديرًا، حُذف المميَّز لدلالة ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ عليه، كما حُذف المأذون فيه / في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ [الحج، ٣٩/٢٢] لدلالة الصلة عليه، أي: أحسن الخالقين خَلقًا، فالحُسن للخلق. [١٣٣و]

قيل: نظيره قوله عليه السلام: «إنّ الله جميل يحبّ الجمال»،[٦] أي: جميلٌ فعلُه، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامه، فانقلب مرفوعًا، فاستكنّ.

رُوي أنّ عبد الله بن أبي سَرْح كان يكتب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم الوحيَ، فلمّا انتهى عليه السلام إلى قوله: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ سارع عبد الله إلى النطق به قبل إملائه عليه السلام، فقال عليه السلام: «اكتب، هكذا نزلت»،

---

١ أي: "عَظْمًا فَكَسَوْنَا الْعَظْمَ". قرأ بها ابن عامر وأبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وقتادة والأعرج والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

٤ انظر: البحر الرائق لابن نجيم، ٢٤٥/٧.

٥ ط س: محضة. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٦ صحيح مسلم، ٩٣/١ (٩١)؛ سنن الترمذي، ٣٦١/٤ (١٩٩٩).

فشكّ عبد الله، فقال: «إن كان محمّد يوحَى إليه فأنا كذلك»، فلحِق بمكّة كافرًا، ثمّ أسلَم يومَ الفتح. وقيل: مات على كفره.[١]

ورَوى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: لمّا نزلت هذه الآية قال عمر رضي الله عنه: «فتبارك الله أحسن الخالقين»، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هكذا نزل يا عمر».[٢]

وكان رضي الله عنه يفتخر بذلك ويقول: «وافقتُ ربّي في أربع؛ الصلاةِ خلفَ المقام، وضَربِ الحجاب على النسوة، وقَولي لهنّ: "أو ليُبْدله الله خيرًا منكنّ" فنزل قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ الآيةَ [التحريم، ٥/٦٦]، والرابعُ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾».[٣]

انظر كيف وقعت هذه الواقعة سببًا لسعادة عمر رضي الله عنه وشقاوة ابن أبي سَرح حسبما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة، ٢٦/٢]. لا يُقال: فقد تكلّم البشر ابتداءً بمِثل نظم القرآن، وذلك قادح في إعجازه؛ لِمَا أنّ الخارج عن قدرة البشر ما كان مقدار أقصر السور، على أنّ إعجاز هذه الآية الكريمة مَنوط بما قبلها، كما يُعرب عنه "الفاء"، فإنّها اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبله.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد ما ذكر مِن الأمور العجيبة، حسبما يُنبئ عنه ما في اسم الإشارة مِن معنى البعد المشعِر بعلوّ رتبة المشار إليه وبُعد منزلته في الفضل والكمال، وكونِه بذلك ممتازًا منزّلًا منزلةَ الأمور الحسّيّة.

/ ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ لَصائرون إلى الموت لا محالةَ، كما يؤذن به صيغة النعت الدالّة على الثبوت، دون الحدوث الذي يفيده صيغة الفاعل. وقد قُرئ: "لَمَائِتُونَ".[٤] [١٣٣ظ]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٣/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ١٧٩/٣.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٣/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ١٧٩/٣. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٤٣٨/١١ (١٢٢٤٤)، في حديث طويل.

٣ تفسير يحيى بن سلّام، ٣٩٥/١؛ مسند أبي داود الطيالسي، ٤٦/١ (٤١).

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٣.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: عند النفخة الثانية ﴿تُبْعَثُونَ﴾ مِن قبوركم للحساب والمُجازاة بالثواب والعقاب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ بيان لخلق ما يَحتاج إليه بقاؤهم إثر بيان خلقهم، أي: خلقنا في جهة العلوّ مِن غير اعتبار فوقيّتها لهم؛ لأنّ تلك النسبة إنّما تعرّض لها بعد خلقهم.

﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ هي السماوات السبع، سمّيت بها لأنّها طُورق بعضها فوق بعض مطارقةَ النعل،[1] فإنّ كلّ ما فوقَه مثلُه فهو طريقه، أو لأنّها طرائق الملائكة، أو الكواكب فيها مسيرها.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾ عن ذلك المخلوق الذي هي السماوات، أو عن جميع المخلوقات التي هي مِن جملتها، أو عن الناس ﴿غَٰفِلِينَ﴾ مهمِلين أمرها؛ بل نحفظها عن الزوال والاختلال، وندبّر أمرها حتّى تبلغ منتهى ما قُدّر لها مِن الكمال حسبما اقتضته الحكمة وتعلّقت به المشيئة، ويصل إلى ما في الأرض منافعها، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطر، أو الأنهار النازلة مِن الجنّة. قيل: هي خمسة أنهار؛ سِيحون نهر الهند، وجيحون نهر بَلْخ، ودِجلة والفرات نهرا العراق، والنيل نهر مِصر، أنزلها الله تعالى مِن عينٍ واحدة مِن عيون الجنّة، فاستودعها الجبالَ، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في فنون معايشهم.[2]

و﴿مِن﴾ ابتدائيّة متعلّقة بـ﴿أَنزَلْنَا﴾، وتقديمُها على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم، والتشويق إلى المؤخَّر. والعدول عن الإضمار لأنّ الإنزال لا يُعتبر فيه عنوان كونها طرائقَ؛ بل مجرّدُ كونها جهةَ العلوّ.

---

١ طارَق النعلَ، إذا صيَّرها طاقًا فوق طاق، وركَّب بعضها فوق بعض. **النهاية** لابن الأثير، «طرق».

٢ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٨٧/٣؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٧٩/٣.

﴿بِقَدَرٍ﴾ بتقديرٍ لائقٍ لاستجلاب منافعهم ودفع مضارّهم، / أو بمقدار ما علمنا مِن حاجاتهم ومصالحهم، ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلناه ثابتًا قارًّا فيها. [١٣٤و]

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ﴾ أي: إزالته بالإفساد، أو التصعيد، أو التغوير بحيث يتعذّر استنباطه ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ كما كنّا قادرين على إنزاله. وفي تنكير ﴿ذَهَابٍ﴾ إيماء إلى كثرة طُرقه، ومبالغةٌ في الإيعاد[1] به، ولذلك جُعل أبلغَ مِن قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك، ٣٠/٦٧].

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ١٩﴾

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ في الجنّات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفكّهون بها، ﴿وَمِنْهَا﴾ مِن الجنّات ﴿تَأْكُلُونَ﴾ تغذّيًا، أو تُرزقون وتحصّلون معايشكم، مِن قولهم: "فلان يأكل مِن حِرفته". ويجوز أن يعود الضميران للنخيل والأعناب، أي: لكم في ثمراتها أنواع مِن الفواكه، الرُّطَب والعِنب، والتمر والزبيب، والعصير والدبس، وغير ذلك، وطعامٌ تأكلونه.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ٢٠﴾

﴿وَشَجَرَةً﴾ بالنصب عطفٌ على ﴿جَنَّٰتٍ﴾.[2] وقُرئ بالرفع على أنّه مبتدأ خبره محذوف دلّ عليه ما قبله، أي: وممّا أُنشِئَ لكم به شجرة، وتخصيصُها بالذكر مِن بين سائر الأشجار لاستقلالها بمنافعَ معروفة، قيل: هي أوّلُ شجرة نبتَتْ بعد الطوفان.

وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ وهو جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة، وقيل: بفلسطين، ويقال له: "طور سينين". فإمّا أن يكون "الطور" اسم الجبل، و﴿سَيْنَآءَ﴾ اسم البقعة أضيفَ إليها، أو المركّب منهما علَم له،

---

[1] ط س: الإبعاد.

[2] في الآية السابقة.

كـ"امرئ القيس". ومنعُ صرفه[١] على قراءة مَن كسر السين[٢] للتعريف[٣] والعجمة، أو التأنيثِ على تأويل البُقعة، لا للألف؛ لأنّه "فِيعال" -كـ"دِيماس"- مِن "السَّناء" بالمدّ، وهو الرفعة، أو بالقصر، وهو النور، أو ملحق بـ"فِعْلَال" -كَـ"عِلْبَاء"-[٤] مِن "السِّين"، / إذ لا فِعلاءَ بألف التأنيث، بخلاف "سَيناء"، فإنّه "فَيعال" كـ"كَيسان"، أو "فَعلاء" كـ"صَحراء"، إذ لا "فَعْلَال" في كلامهم. وقُرئ بالكسر والقصر. [١٣٤ظ]

والجملة صفة لـ﴿شَجَرَةً﴾، وتخصيصها بالخروج منه مع خروجها مِن سائر البقاع أيضًا لتعظيمها، ولأنّه المنشأ الأصلي لها.

وقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ صفة أخرى لـ﴿شَجَرَةً﴾، و"الباء" متعلّقة بمحذوف وقع حالًا منها، أي: تنبت ملتبسة به. ويجوز كونها صلة معدِّية، أي: تُنْبِتُه بمعنى تتضمّنه وتحصّله، فإنّ النبات حقيقةً صفةٌ للشجرة لا للدهن. وقُرئ: "تُنْبِتُ"[٥] مِن الإفعال، وهو إمّا مِن "الإنبات" بمعنى "النبات"، كما في قول زهير:

رأيتُ ذوي الحاجاتِ حولَ بيوتهم قَطينًا لهم حتّى إذا أنبتَ البقلُ[٦]

أو على تقدير: تُنبتُ زيتونَها ملتبسًا بالدهن. وقُرئ على البناء للمفعول،[٧] وهو كالأوّل، و"تُثْمِرُ بِالدُّهْنِ"،[٨] و"تَخْرُجُ بِالدُّهْنِ"،[٩] و"تَنْبُتُ بِالدِّهَانِ".[١٠]

---

١ س + للتعريف.

٢ ط - على قراءة مَن كسر السين. | قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

٣ س - للتعريف.

٤ ط س: كعليا.

٥ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورويس. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

٦ القطين: الساكن النازل في الدار. يقول: يلزمونهم فيسكنون عندهم. وقوله: "أنبتَ البقلُ" أي: أخصب الناس. شرح شعر زهير لثعلب، ص ٩٣.

٧ أي: "تُنْبَتُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري والحسن والأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٣.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٨١/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٥٥/٧.

٩ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها، ورُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه: "تُخْرِجُ الدُّهْنَ". انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٨١/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٥٥/٧. قال أبو حيّان: «وما رَووا مِن قراءة عبد الله "تُخْرِجُ الدُّهْنَ" وقراءة أبيّ "تُثْمِرُ بِالدُّهْنِ" محمول على التفسير لمخالفته سَواد المصحف المجمع عليه».

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن سليمان بن عبد الملك والأشهب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٥٥/٧.

﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ معطوف على ﴿ٱلدُّهۡنِ﴾ جارٍ على إعرابه عطفَ أحدِ وصفَي الشيء على الآخر، أي: تَنبُت بالشيء الجامع بين كونه دُهنًا يُدهَن به ويُسرَج منه، وكونِه إدامًا يُصبغ فيه الخبز، أي: يُغمَس للِائتدام. وقُرئ: "وَصِبَاغٍ"، كـ"دِبَاغٍ" في دَبْغ.

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١﴾

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾ بيان للنعم الفائضة عليهم مِن جهة الحيوان إثرَ بيان النعم الواصلة إليهم مِن جهة الماء والنبات، وقد بُيّن أنّها مع كونها في نفسها نعمة ينتفعون بها على وجوه شتّى عبرةٌ لا بدّ مِن أن يعتبروا بها، ويستدلّوا بأحوالها على عظيم قدرة الله عزّ وجلّ، وسابغ رحمته، ويشكروه، ولا يكفروه، وخُصّ هذا بالحيوان لِما أنّ محلّ العبرة فيه أظهر ممّا في النبات.

وقوله تعالى: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ / تفصيل لِما فيها مِن مواقع العِبرة. [١٣٥و]
وما في بطونها عبارة إمّا عن الألبان، فـ﴿مِن﴾ تبعيضيّة، والمراد بـ"البطون" الجَوف، أو عن العَلَف الذي يتكوّن منه اللبن، فـ﴿مِن﴾ ابتدائيّة، و"البطون" على حقيقتها. وقُرئ بفتح النون،[1] وبالتاء،[2] أي: تَسقِيكم الأنعام.

﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾ غير ما ذُكر مِن أصوافها وأشعارها، ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ فتنتفعون بأعيانها كما تنتفعون بما يحصل منها.

﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾

﴿وَعَلَيۡهَا﴾ أي: على الأنعام، فإنّ الحَمل عليها لا يقتضي الحَمل على جميع أنواعها؛ بل يتحقّق بالحَمل على البعض، كالإبل ونحوها. وقيل: المراد هي الإبل خاصّةً؛ لأنّها هي المحمول عليها عندهم، والمناسبُ لـ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾،

---

١ قرأ بها نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٤.

٢ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٤.

فإنّها سفائن البَرّ، قال ذو الرمّة:[١]

سفينةُ بَرٍّ تحتَ خَدّي زِمامُها[٢]

فالضمير فيهِ كما في قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾[٣] [البقرة، ٢/٢٢٨].

﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي: في البرّ والبحر. وفي الجمع بينها وبين ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ في إيقاع الحَمل عليها مبالغة في تحمّلها للحَمل، وهو الداعي إلى تأخير ذكر هذه المنفعة مع كونها مِن المنافع الحاصلة منها مِن[٤] ذكر مَنفعة الأكل المتعلّقة بعينها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ شروع في بيان إهمال الأمم السابقة، وتركِهم النظرَ والاعتبارَ فيما عُدِّد مِن النِّعم الفائتة للحصر، وعدمِ تذكّرهم بتذكير رسلهم، وما حاق بهم لذلك مِن فنون العذاب؛ تحذيرًا للمخاطَبين. وتقديمُ قصّةِ نوح عليه السلام على سائر القِصص ممّا لا يخفى وجهه، وفي إيرادها إثرَ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾[٥] مِن حُسن الموقع ما لا يوصف.

و"الواو" ابتدائيّة، و"اللام" جواب قسم محذوف. وتصدير القصّة به لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها، أي: وبالله / لقد أرسلنا نوحًا... إلخ. ونسَبه الكريم وكيفيّةُ بَعثه وكمّيّةُ لَبثه فيما بينهم قد مرّ تفصيله في سورة الأعراف[٦] وسورة هود.[٧] [١٣٥ظ]

---

١ هو غيلان بن عقبة بن بهيس، ذو الرُّمّة (ت. ١١٧هـ/٧٣٥م)، مِن فحول الشعراء، مُضريّ النسب. والرُّمّة: هي الحبل. شبَّبَ بمَيّة بنت مقاتل المنقريّة، وبالخرقاء. وله مدائح في الأمير بلال بن أبي بردة. قال أبو عمرو بن العلاء: «افتُتح الشعراء بامرئ القيس، وخُتموا بذي الرُّمّة». وقيل: إن الوليد قال للفرزدق: «أتعلم أحدًا أشعرَ منك؟» قال: «غلام مِن بني عديّ، يركب أعجاز الإبل» يريد: ذا الرُّمّة. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٥/٢٦٧؛ **والأعلام** للزركلي، ٥/١٢٤.

٢ صدره:

طُروقًا وجِلبُ الرَّحلِ مشدودةٌ به

ديوان ذي الرمّة، ٢/١٠٠٤. وفيه: "وجِلْبُ الرَّحل": خشبة بغير أداة.

٣ وفي هامش م: مِن حيث إنّ كلًّا منها أخصّ مِن المرجع فـ﴿ٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ تعمّ المطلّقة الرجعيّة والمَبتوتة، وكذا ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ تعمّ الإبل وغيرها. «منه».

٤ س: عن.

٥ في الآية السابقة.

٦ الأعراف، ٧/٥٩.

٧ هود، ١١/٢٥.

﴿فَقَالَ﴾ متعطّفًا عليهم ومستميلًا لَهم إلى الحقّ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اعبدوه وحده كما يُفصح عنه قوله تعالى في سورة هود: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود، ٢٦/١١]. وتركُ التقييد به للإيذان بأنّها هي العبادة فقط، وأمّا العبادة بالإشراك فليس مِن العبادة في شيء رأسًا.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ استئناف مَسوق لتعليل العبادة المأمور بها، أو تعليلِ الأمر بها. و﴿غَيۡرُهُۥ﴾ بالرفع صفة لـ﴿إِلَٰهٍ﴾ باعتبار محلِّه الذي هو الرفعُ على أنّه فاعل، أو مبتدأ خبره ﴿لَكُم﴾، أو محذوف و﴿لَكُم﴾ للتخصيص والتبيين، أي: ما لكم في الوجود أو في العالَم إلهٌ غيرُه تعالى. وقُرئ بالجرّ[1] باعتبار لفظه.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلَا تَقُون أنفسَكم عذابَهُ الذي يستوجبه ما أنتم عليه مِن ترك عبادته تعالى، كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف، ٥٩/٧]، وقولُه تعالى: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود، ٢٦/١١]. وقيل: أفلا تخافون أن ترفضوا عبادةَ الله الذي هو ربّكم... إلخ، وليس بذاك. وقيل: أفلا تخافون أن يزيل عنكم نعَمه... إلخ، وفيه ما فيه. و"الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه. و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أتعرفون ذلك -أي: مضمون قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾- فلا تتّقون عذابه بسبب إشراككم به في العبادة ما لا يستحقّ الوجودَ لولا إيجاد الله تعالى إيّاه، فضلًا عن استحقاق العبادة؟ فالمنكَرُ عدمُ الاتّقاء مع تحقّق ما يوجبه، أو ألَا تُلاحظون ذلك فلا تتّقونه؟ فالمنكَر كِلا الأمرين، فالمبالغة حينئذ في الكمّيّة، وفي الأوّل في الكيفيّة.

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗۖ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ٢٥﴾

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ أي: الأشراف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ وُصِف الملأ بما ذُكر مع اشتراك الكلّ فيه للإيذان بكمال عَراقتهم في الكفر، وشدّةِ شَكيمتهم فيه،

---

[1] قرأ بها أبو جعفر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

أي: قالوا لعوامّهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: في الجنس والوصف مِن غير
[١٣٦و] فَرق / بينكم وبينه، وصفوه عليه السلام بذلك مبالغةً في وضع رتبته العالية وحطِّها عن منصب النبوّة.

﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يريد أن يطلب الفضل عليكم ويتقدّمكم بادّعاء الرسالة مع كونه مثلَكم، وصفوه بذلك إغضابًا للمخاطَبين عليه عليه الصلاة والسلام[١] وإغراءً لَهم على معاداته عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ بيان لعدم رسالة البشر على الإطلاق على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشريّته عليه السلام، أي: لو شاء الله تعالى إرسال الرسول لأرسل رسلًا مِن الملائكة. وإنّما قيل: ﴿لَأَنزَلَ﴾ لأنّ إرسال الملائكة لا يكون إلّا بطريق الإنزال، فمفعول المشيئة مطلقُ الإرسال المفهومُ مِن الجواب، لا نفسُ مضمونه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ﴾ [النحل، ٩/١٦] ونظائره.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: بمثل هذا الكلام الذي هو الأمر بعبادة الله تعالى خاصّةً وتركِ عبادة ما سواه. وقيل: بمثل نوح عليه السلام في دعوى[٢] النبوّة. ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: الماضِين قبل بعثته عليه السلام، قالوه إمّا لكونهم وآبائهم في فترة متطاولة، وإمّا لفَرط غلوّهم في التَكَذُّبِ والعناد، وانهماكهم في الغيّ والفساد. وأيًّا ما كان فقولُهم هذا ينبغي أن يكون هو الصادر عنهم في مبادي دعوته عليه السلام، كما ينبئ عنه "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾... إلخ.

وقيل: معناه: ما سمعنا به عليه السلام أنّه نبيّ. فالمراد بآبائهم الأوّلين الذين مضَوا قبلهم في زمن نوح عليه السلام. وقولهم المذكور هو الذي صدر عنهم في أواخر أمره عليه السلام، وهو المناسب لِما بعده مِن حكاية دعائه عليه السلام، وقولِهم: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون، أو جِنّ يخبلونه، ولذلك يقول ما يقول، ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: احتملوه واصبروا عليه وانتظروا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لعلّه يُفيق ممّا فيه؛ محمولٌ حينئذ على ترامي أحوالهم في المكابرة والعناد، وإضرابِهم عمّا وصفوه عليه السلام به مِن البشريّة وإرادةِ التفضّل إلى وصفه عليه السلام

---

[١] س: عليه السلام.

[٢] س: دعوى.

بما ترى، وهم يعرفون أنّه عليه السلام أرجح الناس عقلًا وأرزَنُهم قولًا. وعلى الأوّل على تناقض مقالاتهم الفاسدة، قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية كلام الكفرة، كأنّه قيل: فماذا قال عليه السلام بعدما سمع منهم هذه الأباطيل؟ فقيل: قال لمّا رآهم قد أصرّوا على الكفر والتكذيب، وتمادَوا في الغواية والضلال حتّى يَئِس مِن إيمانهم بالكلّيّة، وقد أُوحِي إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود، ٣٦/١١]: / ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾ بإهلاكهم بالمرّة، فإنّه حكاية إجماليّة لقوله عليه السلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾... إلخ [نوح، ٢٦/٧١]. [١٣٦ظ]

﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: بسبب تكذيبهم إيّاي، أو بدلَ تكذيبهم.

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨﴾

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ عند ذلك ﴿أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ ﴿أن﴾ مفسِّرة لِما في الوحي مِن معنى القول. ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ ملتبسًا بحفظنا وكلاءتنا، كأنّ معه عليه السلام منه عزّ وعلا حُفّاظًا وحرّاسًا يكلئونه بأعينهم مِن التعدّي، أو مِن الزيغ في الصنعة. ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ وأمرِنا وتعليمِنا لكيفيّة صنعها.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ لترتيب مضمون ما بعدها على تمام صنع الفُلك. والمراد بـ"الأمر" العذابُ كما في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [هود، ٤٣/١١]، لا الأمرُ بالركوب كما قيل،[1] وبمجيئه كمالُ اقترابه أو ابتداءُ ظهوره. أي: إذا جاء إثرَ تمام الفُلك عذابُنا.

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٨٦/٤.

وقوله تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ عطف بيان لمجيء الأمر. رُوي أنّه قيل له عليه السلام: «إذا فار الماء مِن التنّور اركب أنت ومَن معك»، وكان تنّورَ آدمَ عليه السلام، فصار إلى نوح عليه السلام، فلمّا نبع منه الماءُ أخبرَته امرأته فركبوا.[١] واختُلِف في مكانه، فقيل: كان في مسجد الكوفةِ، أي: في موضعه عن يمين الداخل مِن باب كِندةَ اليومَ. وقيل: كان في عين وردة مِن الشام. وقد مرّ تفصيله في تفسير سورة هود عليه السلام.[٢]

﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي: أَدْخِل فيها، يقال: "سَلَكَ فيه"، أي: دَخَل فيه، و"سَلَكَه فيه"، أي: أَدخَله[٣] فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدثر، ٤٢/٧٤].

﴿مِن كُلٍّ﴾ أي: مِن كلّ أمّة ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أي: فَردين مزدَوجين، كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ فإنّه نصّ في الفردين دون الجمعَين أو الفريقَين. وقُرئ بالإضافة[٤] على / أنّ المفعول ﴿ٱثْنَيْنِ﴾، أي: مِن كلِّ أُمَّتَيْ زوجين، وهما أمّة الذكر وأمّة الأنثى، كالجِمال والنُّوق والحُصُن والرِّماك. وهذا صريح في أنّ الأمر كان قبل صنعة الفُلك، وفي سورة هود: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ [هود، ٤٠/١١]، فالوجه أن يُحمل إمّا على أنّه حكايةٌ لأمرٍ آخر تنجيزيّ ورَد عند فوران التنّور الذي نِيط به الأمر التعليقي اعتناءً بشأن المأمور به، أو على أنّ ذلك هو الأمر السابق بعينه، لكن لمّا كان الأمر التعليقي قبل تحقّق المعلّق به في حقّ إيجاب المأمور به بمنزلة العدم جُعِل كأنّه إنّما حدث عند تحقّقه، فحُكِي على صورة التنجيز، وقد مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة، ٣٤/٢]. [١٣٧و]

﴿وَأَهْلَكَ﴾ منصوب بفعل معطوف على ﴿فَٱسْلُكْ﴾، لا بالعطف على ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أو ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ على القراءتين؛ لأدائه إلى اختلال المعنى، أي: واسلك أهلَك، والمراد به امرأته وبنوه. وتأخير الأمر بإدخالهم عمّا ذُكر مِن إدخال الأزواج فيها لكونه عريقًا فيما أُمِر به مِن الإدخال، فإنّه محتاج إلى مُزاولة الأعمال منه عليه السلام؛

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١٨٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٦/٤. وانظر: جامع البيان للطبري، ٤٠٤/١٢ (هود، ٤٠/١١).

٢ هود، ٤٠/١١.

٣ س: أدخلته.

٤ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٨٨/٢.

بل إلى معاونةٍ مِن أهله وأتباعه. وأمّا هم فإنّما يدخلونها باختيارهم بعد ذلك، ولأنّ في المؤخَّر ضرب تفصيل بذِكر الاستثناء وغيره، فتقديمه يؤدّي إلى الإخلال بتجاوب أطراف النظم الكريم.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي: القولُ بإهلاك الكفرة، وإنّما جيء بـ"على" لكون السابق ضارًّا، كما جيء باللام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء، ١٠١/٢١] لكونه نافعًا.

﴿وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ بالدعاء لإنجائهم ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ تعليلٌ للنهي، أو لِما يُنبئ عنه مِن عدم قبول الدعاء، أي: إنّهم مَقضيّ عليهم بالإغراق لا محالةَ لظلمهم بالإشراك وسائر المعاصي. ومَن هذا شأنه لا يُشفع له / ولا يُشفّع فيه، كيف لا، وقد أُمر بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ أي: مِن أهلك وأشياعك ﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ على طريقة قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام، ٤٥/٦]. [١٣٧ظ]

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى﴾ في السفينة أو منها ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي: إنزالًا، أو موضعَ إنزالٍ يستتبع خيرًا كثيرًا. وقُرئ: "مَنْزِلًا"،[1] أي: موضعَ نزولٍ. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أُمر عليه السلام بأن يُشفع دعاءه ما يطابقه مِن ثنائه عزّ وجلّ توسّلًا به إلى الإجابة. وإفرادُه عليه السلام بالأمر مع شركة الكلّ في الاستواء والنجاة لإظهار فضله عليه السلام والإشعار بأنّ في دعائه وثنائه مندوحة عمّا عداه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر ممّا فُعِل به عليه السلام وبقومه ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ جليلةً يستدِلّ بها أولو[2] الأبصار، ويعتبر بها ذَوُو الاعتبار. ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ ﴿إن﴾ مخفّفة

---

١ قرأ بها أبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.
٢ م: أولوا.

مِن "إنّ"، و"اللام" فارقة بينها وبين النافية. وضمير الشأن محذوف، أي: وإنّ الشأن كنّا مصيبين قومَ نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد، أو مختبرين بهذه الآيات عبادَنا لننظر مَن يعتبر ويتذكّر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر، ١٥/٥٤].

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: مِن بعد إهلاكهم ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ هم عاد حسبما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى[1] عنهما،[2] وعليه أكثر المفسّرين، وهو الأوفق لِما هو المعهود في سائر السور الكريمة مِن إيراد قصّتهم إثرَ قصّة قوم نوح. وقيل: هم ثمود.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ﴾ جُعِلوا موضعًا للإرسال كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ [الرعد، ٣٠/١٣] ونحوِه، لا غايةً له كما في مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا / إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف، ٥٩/٧]؛ للإيذانِ مِن أوّل الأمر بأنّ مَن أُرسل إليهم لم يأتهم مِن غير مكانهم؛ بل إنّما نشأ فيما بين أظهرهم، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، أي: مِن جملتهم نسبًا، فإنّهما عليهما السلام كانا منهم. [١٣٨و]

و﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ مفسِرة لـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ لتضمّنه معنى القول، أي: قلنا لهم على لسان الرسول: اعبدوا الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ تعليل للعبادة المأمور بها، أو لِلأمرِ بها، أو لوجوب الامتثال به. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: عذابَه الذي يستدعيه ما أنتم عليه مِن الشرك والمعاصي. والكلام في العطف كالذي مرّ في قصّة نوح عليه السلام.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾

---

[1] س - تعالى.

[2] المؤمنون، ٢٣/٢٣.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ حكاية لقولهم الباطل إثرَ حكاية القول الحقّ الذي ينطق به حكايةُ إرسال الرسول بطريق العطف، على أنّ المراد حكايةُ مطلق تكذيبهم له عليه السلام إجمالًا، لا حكايةُ ما جرى بينه عليه السلام وبينهم مِن المحاورة والمقاولة تفصيلًا حتّى يُحكى بطريق الاستئناف المبنيّ على السؤال، كما يُنبئ عنه ما سيأتي مِن حكاية سائر الأمم، أي: وقال الأشراف مِن قومه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في محلّ الرفع على أنه صفة لـ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، وُصِفوا بذلك ذمًّا لهم، وتنبيهًا على غلوّهم في الكفر. وتأخيره مِن ﴿قَوْمِهِ﴾ لعطف قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وما عُطف عليه على الصلة الأولى، أي: كذّبوا بلقاء ما فيها مِن الحساب والثواب والعقاب، أو بمَعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث.

﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ ونعّمناهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال والأولاد، أي: قالوا لأعقابهم مُضِلّين لهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: في الصفات والأحوال. وإيثارُ ﴿مِثْلُكُمْ﴾ على "مِثلنا" للمبالغة في تهوين أمره عليه السلام وتوهينه.

﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ تقرير للمماثلة. و﴿مَا﴾ خبريّة. / والعائد إلى الثاني منصوب محذوف، أو مجرور قد حُذف مع الجارّ لدلالة ما قبله عليه. [١٣٨ظ]

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ أي: فيما ذُكر مِن الأحوال والصفات، أي: إن امتثلتم بأوامره ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ أي: على تقدير الاتّباع ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ عقولَكم، ومغبونون في آرائكم، حيث أذللتم أنفسكم. انظر كيف جعلوا اتّباعَ الرسول الحقّ الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خُسرانًا دون عبادة الأصنام التي لا خسرانَ وراءها، قاتلهم الله أنّى يُؤفكون.

و﴿إِذًا﴾ واقع بين اسم ﴿إِنَّ﴾ وخبرها لتأكيد مضمون الشرط. والجملة جواب لقسَم محذوف قبل ﴿إِن﴾ الشرطيّة المصدّرة باللام الموطّئة. أي: وبالله لئن أطعتم بشرًا مثلكم إنكم إذًا لخاسرون.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما قبله مِن زجرهم عن اتّباعه عليه السلام بإنكار وقوع ما يدعوهم إلى الإيمان به واستبعاده. ﴿أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ بكسر الميم، مِن "مات يَمات". وقُرئ بضمّها،[1] مِن "مات يَموت". ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ نخِرةً مجرّدةً عن اللحوم والأعصاب، أي: كان بعض أجزائكم مِن اللحم ونظائره ترابًا، وبعضُها عظامًا. وتقديم التراب لعَراقته في الاستبعاد، وانقلابِه مِن الأجزاء البادية. أو كان متقدِّموكم ترابًا صِرفًا، ومتأخِّروكم عظامًا.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّكُم﴾ تأكيد للأوّل لطول الفصل بينه وبين خبره الذي هو قوله تعالى: ﴿مُّخْرَجُونَ﴾ أي: مِن القبور أحياءً كما كنتم. وقيل: ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ مبتدأ، و﴿إِذَا مِتُّمْ﴾ خبره، على معنى إخراجُكم إذا مِتّم، ثمّ أُخبر بالجملة عن ﴿أَنَّكُم﴾. وقيل: رُفع ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ بفعل هو جزاء الشرط، كأنّه قيل: إذا متّم وقع إخراجكم، ثمّ أُوقِعت الجملة الشرطيّة خبرًا عن ﴿أَنَّكُم﴾. والذي يقتضيه جزالة النظم الكريم هو الأوّل. وقُرئ: "أَيَعِدُكُمْ إِذَا مِتُّمْ"... إلخ.

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

[١٣٩و] / ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ تكرير لتأكيد البعد، أي: بَعُد الوقوعُ أو الصحّة ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾. وقيل: "اللام" لبيان المستبعَد ما هو، كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف، ٢٣/١٢]، كأنّهم لمّا صوّتوا بكلمة الاستبعاد قيل: لماذا هذا الاستبعاد؟ فقيل: لِمَا توعدون. وقيل: ﴿هَيْهَاتَ﴾ بمعنى البعد، وهو مبتدأ خبره ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾. وقُرئ بالفتح منوّنًا[2] للتنكير، وبالضمّ منوّنًا[3] على أنّه جمع "هَيهة"، وغيرَ منوّن[4]

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وأبو جعفر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٤٣/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٤. وعن هارون عن أبي عمرو في البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦٠/٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦١/٧.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦١/٧.

تشبيهًا بـ"قَبْلُ"، وبالكسر على الوجهين،[١] وبالسكون[٢] على لفظ الوقف، وإبدالِ التاء هاءً.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أصله: إنِ الحياة إلّا حياتنا. فأقيمَ الضمير مُقام الأولى لدلالة الثانية عليها حذرًا مِن التكرار، وإشعارًا بإغنائها عن التصريح، كما في "هي النفس تتحمّل ما حُمّلت"، و"هي العربُ تقول ما شاءت". وحيث كان الضمير بمعنى الحياة الدالّة على الجنس كانت ﴿إِنْ﴾ النافية بمنزلة "لا" النافية للجنس.

وقوله تعالى: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ جملة مفسّرة لِما ادّعَوه مِن أنّ الحياة هي الحياة الدنيا، أي: يموت بعضنا ويولد بعض إلى انقراض العصر، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدّعيه مِن إرساله، وفيما يَعِدنا مِن أنّ الله تعالى يبعثنا، ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمُصدّقين فيما يقوله.

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: هود عليه السلام عند يأسه مِن إيمانهم بعد ما سلك في دعوتهم كلّ مَسلك متضرّعًا إلى الله عزّ وجلّ: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي﴾ عليهم، وانتقم لي منهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: بسبب تكذيبهم إيّاي وإصرارِهم عليه.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿قَالَ﴾ تعالى إجابةً لدعائه وعِدَةً بالقبول: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: عن زمانٍ قليلٍ، و﴿مَا﴾ مزيدة بين الجارّ والمجرور لتأكيد معنى القِلّة، كما زيدت في قوله تعالى:

---

١ بالكسر مِن غير تنوين قرأ أبو جعفر المدني. **النشر** لابن الجزري، ٣٢٨/٢. وبالكسر مع التنوين قراءة شاذّة، مرويّة عن خالد بن إياس. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٦١/٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن خارجة بن مصعب عن أبي عمرو والأعرج وعيسى. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٦١/٧.

[١٣٩ظ] ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران، ١٥٩/٣]، / أو نكرة موصوفة أي: عن شيء قليل ﴿لَيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ على ما فعلوا مِن التكذيب، وذلك عند معاينتهم للعذاب.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ لعلَّهم حين أصابتهم الريح العقيم أُصِيبوا في تضاعيفها بصيحة هائلة أيضًا. وقد رُوي أنّ شدّاد بن عاد[١] حين أتمّ بناءَ إرَمَ سار إليها بأهله، فلمّا دنا منها بعث الله تعالى[٢] عليهم صيحة مِن السماء، فهلكوا.[٣] وقيل: الصيحة نفس العذاب والموت. وقيل: هي العذاب المصطَلَم، قال قائلهم:

صاح الزمانُ بآل بَرْمَكَ صيحةً خرّوا لشدّتها على الأذقانِ[٤]

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلّق بـ"الأخذ"، أي: بالأمر الثابت الذي لا دفاع له، أو بالعدل مِن الله تعالى، أو بالوعد الصِّدق. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ أي: كغُثاء السيل، وهو حَميله. ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إخبار أو دعاء. و﴿بُعْدًا﴾ مِن المصادر التي لا يكاد يُستعمل ناصبُها. والمعنى: بَعُدوا بُعدًا، أي: هلكوا. و"اللام" لبيان مَن قيل له: ﴿بُعْدًا﴾. ووضع الظاهر موضع الضمير للتعليل.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعدِ هلاكهم ﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ هم قوم صالح ولوط وشعيب عليهم السلام وغيرِهم.

---

١ هو شدّاد بن عاد بن ملطاط بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن حِمير، مِن قحطان، ملِك يَماني جاهلي قديم مِن ملوك الدولة الحِميريّة. اتّفقت عليه كلمة أولي الرأي مِن حِمير وقحطان بعد وفاة النعمان بن يعفر، فولّوه المُلك في صنعاء، فكان حازمًا مِغوارًا، غزا البلاد إلى أن بلغ أرمينيّة، وعاد إلى الشام فزحف إلى المغرب، يبني المدن، ويتّخذ المصانع. ولمّا رجع إلى اليمن مضى إلى مأرب فبنى فيه قَصر "إرَم" بجانب السدّ. انظر: التيجان في ملوك حِمير للمعافري، ص ٧٤؛ والأعلام للزركلي، ١٥٨/٣.

٢ س - تعالى.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٧٤٨/٤ (الفجر، ٧/٨٩)؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٠٩/٥ (الفجر، ٧/٨٩).

٤ بغير نسبة في الدرّ الفريد للمستعصمي، ٥٤/٧؛ واللباب لابن عادل، ٢١٥/١٤.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي: ما تتقدّم أمّةٌ مِن الأُمم المهلَكة الوقتَ الذي عُيِّن لهلاكهم، أي: ما تهلِك أمّة قبل مجيء أجلها، ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ ذلك الأجل ساعةً.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۖ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ عطفٌ على ﴿أَنشَأْنَا﴾،[1] لكن لا على معنى أنّ إرسالهم متراخٍ مِن إنشاء القرون المذكورة جميعًا؛ بل على معنى أنّ إرسال كلّ رسول متأخّر عن إنشاء قَرن مخصوص بذلك الرسول، كأنّه قيل: ثمّ أنشأنا مِن بعدهم قرونًا آخرين قد أرسلنا إلى كلّ قرن منهم رسولًا خاصًّا به. والفَصل بين المعطوفين بالجملة المعترِضة الناطقة بعدم تقدّم الأمم أجلَها المضروبَ لهلاكهم للمسارعة إلى بيان هلاكهم على وجهٍ إجمالي.

/ ﴿تَتْرَا﴾ أي: متواترين واحدًا بعد واحد، مِن "الوتر"، وهو الفرد. و"التاء" بدل مِن الواو، كما في "تَوْلَج"[2] و"تَيْقُور".[3] والألف للتأنيث باعتبار أنّ الرسل جماعة. وقُرئ بالتنوين[4] على أنّه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالًا. [١٤٠و]

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ استئناف مبيّن لمجيء كلّ رسول لأمّته، ولِما صدر عنهم عند تبليغ الرسالة. والمراد بالمجيء إمّا التبليغ وإمّا حقيقة المجيء للإيذان بأنّهم كذّبوه في أوّل الملاقاة. وإضافة "الرسول" إلى "الأمّة" مع إضافة كلّهم فيما سبق إلى نون العظمة لتحقيق أنّ كلّ رسول جاءَ أمّتَه الخاصّة به، لا أنّ كُلّهم جاءوا كلّ الأمم، وللإشعار بكمال شناعتهم وضلالهم

---

١ المؤمنون، ٢٣/٤٢.

٢ التَوْلج: الكِناس الذي يتّخذه الوحش في أصول الشجر، الأصل: "وَوْلَج"، فقُلبت الواو تاءً. لسان العرب لابن منظور، «دلج».

٣ التَيقور: الوَقار، وأصله "وَيقور،" قلبت الواو تاء. الصحاح للجوهري، «وقر».

٤ قرأ بها أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٨.

حيث كذّبت كلّ واحدة منهم رسولَها المعيّن لها. وقيل: لأنّ الإرسال لائِق بالمرسِل، والمجيءَ بالمرسَل إليهم.

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الهلاك حسبما تبع بعضُهم بعضًا في مباشرة أسبابه التي هي الكفر والتكذيب وسائر المعاصي. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لم يبقَ منهم إلّا حكايات يَعتبر بها المعتبِرون. وهو اسم جمع للحديث، أو جمعُ "أُحدُوثة"، وهي ما يُتحدّث به تَلهّيًا، كـ"أعاجيب" جمع "أُعجُوبة"، وهي ما يُتعجّب منه، أي: جعلناهم أحاديثَ يُتحدّث بها تلهّيًا وتعجّبًا.

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ اقتُصِر ههنا على وصفهم بعدم الإيمان حسبما اقتُصِر على حكاية تكذيبهم إجمالًا. وأمّا القَرن الأوّلون فحيث نُقل عنهم ما مرّ مِن الغلوّ وتجاوز الحدّ في الكفر والعدوان وُصِفوا بالظلم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٤٥﴾

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هي الآيات التسع مِن اليد والعصا[١] والجراد والقمّل والضفادع والدم والسنين[٢] ونقص الثمرات والطاعون. ولا مساغ لِعَدِّ "فَلْق البحر" منها، إذ المراد هي الآيات التي كذّبوها واستكبروا عنها.

﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجّة واضحة ملزِمةٍ للخصم، وهي إمّا العصا، وإفرادُها بالذكر مع اندراجها في الآياتِ لِما أنّها أمّ آياته عليه السلام وأولاها، وقد تعلّقت بها معجزات شتّى مِن انقلابها ثعبانًا وتلقّفِها لِما أفِكته السحرة، حسبما فُصّل في تفسير سورة طه.[٣] وأمّا التعرّض لانفلاق البحر وانفجار العيون مِن الحَجر بضربها وحِراستها وصيرورتها شمعة وشجرة خضراء مثمرة / ودلوًا ورِشاءً وغير ذلك ممّا ظهر منها مِن قبلُ ومِن بعدُ في غير مَشهد فرعونَ وقومه[٤] فغير ملائم لمقتضى المقام. [١٤٠ظ]

---

١ س + والطوفان [زِيد في الهامش بعلامة "صح"].
٢ م ط س - والسنين ["صح" في هامش م].
٣ طه، ٢٠/٢٠؛ طه، ٦٩/٢٠.
٤ الكشّاف للزمخشري، ١٨٩/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٨/٤.

وإمّا نفس الآيات كقوله:

إلى المَلِك القَرم وابنِ الهُمام... إلخ[1]

عُبّر عنها بذلك على طريقة العطف تنبيهًا على جمعها لعنوانين جليلين وتنزيلًا لتغايرهما منزلة التغاير الذاتي.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشرافِ قومه، خُصّوا بالذكر لأنّ إرسال بني إسرائيل مَنوط بآرائهم، لا بآراء أعقابهم، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الانقياد، وتمرّدوا، ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبّرين متمرّدين.

﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿فَقَالُوٓا۟﴾ عطفٌ على ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾،[2] وما بينهما اعتراض مقرِّر للاستكبار، أي: كانوا قومًا عادتهم الاستكبار والتمرّد، أي: قالوا فيما بينهم بطريق المناصَحة: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ ثُنّي "البشَرُ" لأنّه يُطلَق على الواحد، كقوله تعالى: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم، ١٧/١٩]، كما يُطلَق على الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم، ٢٦/١٩]، ولم يُثَنَّ "المِثلُ" نظرًا إلى كونه في حكم المصدر.

وهذه القَصص كما ترى تدلّ على أنّ مدار شُبَه المنكرين للنبوّة قياس حال الأنبياء على أحوالهم بناءً على جهلهم بتفاصيل شئون الحقيقة البشريّة، وتباين طبقات أفرادها في مراقي الكمال ومَهاوي النقصان، بحيث يكون بعضها في أعلى علّيين، وهم المختصّون بالنفوس الزكيّة، المؤيَّدون بالقوّة القدسيّة، المتعلّقون لِصفاءِ جواهرهم بكِلا العالَمين الروحاني والجسماني، يَتلقّون مِن جانب ويُلْقُون إلى جانب، ولا يَعوقهم التعلّق بمصالح الخلق عن التبتّل إلى جناب الحقّ، وبعضُها في أسفل سافلين، كأولئك الجهلة الذين هم كالأنعام؛ بل هم أضلّ سبيلًا.

---

[1] وفي هامش م: تمامه:

ولـيـثُ الكـتـائـب فـي الـمـزدحَـم

وهو بغير نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ١٠٥/١؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٤٥١/١.

[2] في الآية السابقة.

﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعنون بني إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ أي: خادمون منقادون لنا كالعبيد، وكأنّهم قصدوا بذلك التعريضَ بشأنهما عليهما السلام وحطَّ رتبتهما العليّة عن منصب الرسالة مِن وجه آخر غيرِ البشريّة. و"اللام" في ﴿لَنَا﴾ متعلّقة بـ﴿عَٰبِدُونَ﴾، قُدّمت عليه رعايةً للفواصل، والجملةُ حال مِن فاعل ﴿نُؤْمِنُ﴾ مؤكِّدة لإنكار الإيمان لهما بناءً على زعمهم الفاسد المؤسَّس على قياس الرياسة الدينيّة على الرياسات الدنيويّة الدائرة على التقدّم في نيل الحظوظ الدنيّة مِن المال والجاه، كدأب قريش حيث قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف، ١١/٤٦]، وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ[1] هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]، وجهلِهم بأنّ مناط الاصطفاء للرسالة هو السَّبق في حيازة ما ذكر مِن النعوت العليّة، وإحرازِ الملَكات السنيّة جِبِلّةً واكتسابًا.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: فتَمُّوا[2] على تكذيبهما، وأصرّوا واستكبروا استكبارًا، ﴿فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرَق في بحر قلزم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ أي: بعد إهلاكِهم وإنجاءِ بني إسرائيل مِن مَلَكتهم ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراةَ. / وحيث كان إيتاؤه عليه السلام إيّاها لإرشاد قومه إلى [١٤١و] الحقّ كما هو شأن الكتب الإلهيّة جُعِلوا كأنّهم أُوتُوها، فقيل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى طريق الحقّ بالعمل بما فيها مِن الشرائع والأحكام، وقيل: أريدَ: آتينا قومَ موسى، فحُذف المضاف وأقيمَ المضاف إليه مُقامه، كما في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ [يونس، ٨٣/١٠]، أي: مِن آل فرعونَ وملَئِهم. ولا سبيل إلى عود الضمير إلى "فرعونَ وقومِه"؛ لظهور أنّ التوراة إنّما نزلت بعد إغراقهم لبني إسرائيل.

---

[1] م ط س: أنزل.

[2] تَمَّ على الأمر، وتَمَمَ عليه بإظهار الإدغام، أي: استمرَّ عليه. لسان العرب لابن منظور، «تمم».

وأمّا الاستشهاد على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص، ٤٣/٢٨]،[1] ممّا لا سبيل إليه ضرورةَ أن ليس المراد بـ﴿ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ما يتناول "قومَ فرعون"؛ بل مَن قبلَهم مِن الأمم المهلَكة خاصّةً، كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، كما سيأتي في سورة القصص.

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ -وأيّةَ آيةٍ- دالّةً على عظيم قدرتنا بولادته منها مِن غير مَسيس بَشَر، فـ"الآية" أمرٌ واحد نُسِب إليهما، أو جعَلنا ابنَ مريم آيةً بأن تكلّم في المهد، فظهرت منه معجزات جمّة، وأمّه آيةً بأنّها ولَدته مِن غير مَسيس، فحُذفت الأولى لدلالة الثانية عليها.

والتعبير عنهما بما ذُكر مِن العنوانَين -وهما كونه عليه السلام ابنَها وكونُها أمّه عليه السلام- للإيذان مِن أوّل الأمر بحيثيّة كونهما آيةً، فإنّ نسبته عليه السلام إليها -مع أنّ النسَب إلى الآباء- دالّةٌ على أن لا أب له، أي: جعلنا ابن مريم وحدها مِن غير أن يكون له أب، وأمّه التي وَلَدَتْه خاصّة مِن غير مشاركة الأب آيةً. وتقديمه عليه السلام لأصالته فيما ذُكر مِن كونه آية، كما أنّ تقديم أمّه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ٩١/٢١] لأصالتها فيما[2] نُسب إليها مِن الإحصان والنفخ.

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أي: أرضٍ مرتفعة. قيل: هي إيليا أرضُ بيت المقدس، فإنّها مرتفعة، وإنّها كَبِدُ الأرض وأقرب الأرض إلى السماءِ بثمانية عشر مِيلًا على ما يُروى عن كعب.[3] وقيل: دمشق وغوطَتها. وقيل: فِلسطين والرَّملة. وقيل: مصر، فإنّ قُراها على الرُّبَى. وقُرئ بكسر الراء[4] وضمّها،[5]

---

١ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٨٩/٣؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٦٥/٧.

٢ س: في ما.

٣ **جامع البيان** للطبري، ٥٥/١٧؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤٩/٧.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وسعيد بن المسيّب ونصر بن عاصم والحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٣٥.

٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٢٣٢/٢.

و"رُبَاوَةٍ" بالكسر[١] والضمّ.[٢]

[١٤١ظ] ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقَرّ مِن أرض منبسطة / سهلة يستقرّ عليها ساكنوها. وقيل: ذاتِ ثمار وزروع لأجلها يستقرّ فيها ساكنوها. ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي: وماءٍ معين؛ ظاهرٍ جارٍ، "فَعيل" مِن "مَعَنَ الماءُ" إذا جَرى، وأصله الإبعاد في المشي، أو مِن "الماعون"، وهو النفع؛ لأنّه نفّاع. أو "مفعول" مِن "عانَه" إذا أدركه بالعين، فإنّه لظهوره يدرَك بالعيون. وُصِفَ ماؤها بذلك للإيذان بكونه جامعًا لفنون المنافع مِن الشرب وسَقي ما يُسقَى مِن الحيوان والنبات بغير كُلفة، والتنزّهِ بمنظره المونِق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ حكاية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم على وجه الإجمال لِما خوطب به كلُّ رسول في عصره، جيء بها إثرَ حكاية إيواء عيسى عليه السلام وأمِّه إلى الربوة إيذانًا بأنّ ترتيب مبادي التنعّم لم يكن مِن خصائصه عليه السلام؛ بل إباحة الطيّبات شرع قديم جرى[٣] عليه جميع الرسل عليهم السلام ووُصُّوا به، أي: وقلنا لكلّ رسول: كُلْ مِن الطيّبات واعمل صالحًا، فعُبِّر عن تلك الأوامر المتعدّدة المتعلّقة بالرسل بصيغة الجمع عند الحكاية إجمالًا للإيجاز. وفيه مِن الدلالة على بطلان ما عليه الرهابنة مِن رفض الطيّبات ما لا يخفى.

وقيل: حكاية لِما ذُكر لعيسى عليه السلام وأمِّه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل في تناوُل ما رُزِقا. وقيل: نداء وخطاب له، والجمع للتعظيم. وعن الحسن ومجاهد وقتادة والسدّي والكلبي رحمهم الله تعالى أنّه خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحدَه على دأب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجمع.[٤] وفيه إبانة لفضله وقيامِه مقام الكلّ في حيازة كمالاتهم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

٣ س: حرى.

٤ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٢٩١؛ اللباب لابن عادل، ١٤/٢٢٥.

و"الطيّبات" ما يُستطاب ويُستلذّ مِن مباحات المَأكل والفواكه حسبما ينبئ عنه سياق النظم الكريم، فالأمر للترفيه.

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ أي: عملًا صالحًا، فإنّه المقصود منكم والنافع عند ربّكم. ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿عَلِيمٞ﴾ فأجازيكم عليه.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ استئناف داخل فيما خوطب به الرسل عليهم السلام على الوجه المذكور، مَسوق لبيانِ أنّ ملّة الإسلام والتوحيد ممّا أُمِر به كافّة الرسل والأمم. وإنّما أشيرَ إليها بـ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ للتنبيه على كمال ظهور أمرها في الصحّة والسداد، وانتظامِها بسبب ذلك في سِلك الأمور المشاهَدة.

﴿أُمَّتُكُمۡ﴾ أي: ملّتكم وشريعتكم أيّها الرسل ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: / ملّةً [١٤٢و]
وشريعةً متّحدة في أصول الشرائع التي لا تتبدّل بتبدّل الأعصار. وقيل: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إشارة إلى الأمم المؤمنة للرسل، والمعنى: إنّ هذه جماعتكم جماعةً واحدةً متّفقةً على الإيمان والتوحيد في العبادة.

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ مِن غير أن يكون لي شريك في الربوبيّة. وضمير المخاطَب فيه وفي قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ -أي: في شَقّ العصا والمخالفة بالإخلال بمَواجب ما ذكر مِن اختصاص الربوبيّة بي- للرسل والأمم جميعًا على أنّ الأمر في حقّ الرسل للتهييج والإلهاب، وفي حقّ الأمم للتحذير والإيجاب. و"الفاء" لترتيب الأمر أو وجوبِ الامتثال به على ما قبله مِن اختصاص الربوبيّة به تعالى واتّحاد الأمّة، فإنّ كلًّا منهما موجِب للاتّقاء حتمًا.

وقُرئ: "وَأَنَّ هَذِهِ"[1] بفتح "الهمزة" على حذف "اللام"، أي: ولِأنّ هذه أمّتكم أمّةً... وأنا ربّكم فاتّقون، أي: اتّقوا، فـ﴿ٱتَّقُونِ﴾ كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة، ٢/٤٠]. وقيل: على العطف على ﴿مَا﴾، أي:

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٨.

إنّي عليم بأنّ أمّتكم أمّة... إلخ. وقيل: على حذف فِعلٍ عاملٍ فيه، أي: واعلموا أنّ هذه أمّتكم... إلخ. وقُرئ: "وَأَنْ هَذِهِ"[1] على أنّها مخفّفة مِن "أنّ".

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾ حكاية لِما ظهر مِن أمم الرسل بعدهم مِن مخالفة الأمر وشقّ العصا. والضمير لِما دلّ عليه الأمّة مِن أربابها، أو لها على التفسيرين. و"الفاء" لترتيب عصيانهم على الأمر لزيادة تقبيح حالهم، أي: تقطّعوا أمر دينهم مع اتّحاده، وجعلوه قِطعًا متفرّقة وأديانًا مختلفة.

﴿بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗا﴾ أي: قِطعًا، جمع "زَبور" بمعنى الفِرقة، ويؤيّده قراءة "زُبَرًا" بفتح "الباء"[2] جمع "زُبَرة"، وهو حال مِن ﴿أَمۡرَهُم﴾، أو مِن واو ﴿تَقَطَّعُوٓاْ﴾، أو مفعول ثان له، فإنّه متضمِّن لمعنى "جَعلوا". وقيل: كُتُبًا، فيكون مفعولًا ثانيًا، أو حالًا مِن ﴿أَمۡرَهُم﴾ على تقدير المضاف، أي: مثلَ زُبُرٍ. وقُرئ بتخفيف الباء،[3] كـ"رُسْلٍ" في "رُسُل".

﴿كُلُّ حِزۡبِۭ﴾ مِن أولئك المتحزّبين ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ مِن الدين الذي اختاروه ﴿فَرِحُونَ﴾ مُعْجَبون معتقِدون / أنّه الحقّ. [١٤٢ظ]

﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤﴾

﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ﴾ شُبِّه ما هم فيه مِن الجهالة بالماء الذي يغمُر القامةَ؛ لأنّهم مَغمورون فيها لاعبون بها. وقُرئ: "غَمَرَاتِهِمْ".[4] والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. و"الفاء" لترتيب الأمر بالترك على ما قبله مِن كونهم فرحين بما لديهم، فإنّ انهماكهم فيما هم فيه وإصرارَهم عليه مِن مَخائل كونهم مطبوعًا على قلوبهم، أي: اتركهم على حالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هو حينُ قتلِهم،

---

١ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء وأبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

أو موتِهم على الكفر، أو عذابِهم، فهو وعيد لهم بعذاب الدنيا والآخرة، وتسليةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ونهيٌ له عن الاستعجال بعذابهم، والجزعِ مِن تأخيره. وفي التنكير والإبهام ما لا يخفى مِن التهويل.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ أي: نعطيهم إيّاه ونجعله مدَدًا لهم. فـ﴿مَا﴾ موصولة، وقولُه تعالى: ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ بيان لها، وتقديم "المال" على "البنين" مع كونهم أعزّ منه قد مرّ وجهه في سورة الكهف،[1] لا خبرٌ لـ﴿أَنَّ﴾، وإنّما الخبر قوله تعالى: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ على حذف الراجع إلى الاسم، أي: أيحسبون أنّ الذي نمدّهم به مِن المال والبنين نسارع به لهم فيما فيه خيرهم وإكرامهم؟ على أنّ "الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ عطفٌ على مقدّر ينسحب عليه الكلام، أي: كلّا لا نفعل ذلك؛ بل هم لا يشعرون بشيء أصلًا، كالبهائم لا فطنةَ لهم ولا شعور؛ ليتأمّلوا ويعرفوا أنّ ذلك الإمداد استدراج واستِجرار إلى زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات. وقُرئ: "يُمِدُّهُمْ"[2] على الغيبة، وكذلك "يُسَارِعُ"،[3] و"يُسْرِعُ"،[4] ويحتمل أن يكون فيهما ضمير المُمَدِّ به. وقُرئ: "يُسَارَعُ" مبنيًّا للمفعول.[5]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ استئناف مَسوق لبيان مَن له المسارعة

---

١ الكهف، ١٨/٤٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كثير. البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٥٦٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وعبد الرحمن بن أبي بكرة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٥٦٨.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها ابن خالَوَيه عن بعضهم. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٠٠. وقال ابن الجوزي: «وقرأ أبو عمران الجوني وعاصم الجحدَري وابن السميفع: "يُسْرَعُ" بياء مرفوعة وسكون السين ونصب الراء مِن غير ألف». زاد المسير لابن الجوزي، ٣/٢٦٥. ورُوي كذلك في الشاذّ: "نُسْرِعُ" بالنون عن الحرّ النحوي. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٦.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي بكرة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٥٦٨.

في الخيرات إثرَ إقناط الكفّار عنها، وإبطالِ حسبانهم الكاذب، أي: مِن خوف عذابه حَذِرون.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ المنصوبةِ والمُنزَلةِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بتصديق مدلولها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ شِركًا جليًّا ولا خفيًّا، ولذلك أُخِّر عن الإيمان بالآيات. والتعرّض لعنوان الربوبيّة في المواقع الثلاثة للإشعار بعلّيّتها للإشفاق والإيمان وعدم الإشراك.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ أي: يُعطون ما أعطَوه مِن الصدقات. وقُرئ: "يَأْتُونَ مَا أَتَوْا"،[1] أي: يفعلون ما فعلوه مِن الطاعات. وأيًّا ما كان فصيغة الماضي في الصلة الثانية للدلالة على التحقّق، / كما أنّ صيغة المضارع في الأولى للدلالة على الاستمرار. [١٤٣و]

﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ حال مِن فاعل ﴿يُؤْتُونَ﴾ أو "يَأْتُونَ"، أي: يُؤتون ما آتَوه، أو يفعلون مِن العبادات ما فعلوه، والحالُ أنّ قلوبهم خائفة أشدّ الخوف ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ أي: مِن أنّ رجوعهم إليه[2] عزّ وجلّ، على أنّ مناط الوجَل أن لا يُقبَل منهم ذلك، وأن لا يقع على الوجه اللائق، فيؤاخَذُوا به حينئذ، لا مجرّدَ رجوعهم إليه تعالى. وقيل: لأنّ مرجعهم إليه تعالى.

والموصولات الأربعة عبارةٌ عن طائفةٍ واحدةٍ مُتّصفةٍ بما ذُكِر في حيّز صِلاتها مِن الأوصاف الأربعة، لا عن طوائفَ، كلُّ واحدةٍ منها متّصفةٌ بواحدٍ

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عائشة وابن عبّاس رضي الله عنهم وقتادة والأعمش والحسن والنخعي. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٦؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦٩/٧.

٢ وفي هامش م: خبر لـ"أنّ". «منه».

مِن الأوصاف المذكورة، كأنّه قيل: إنّ الذين هم مِن خشية ربّهم مشفِقون، وبآيات ربّهم يؤمنون... إلخ. وإنّما كُرّر الموصول إيذانًا باستقلال كلّ واحدة مِن تلك الصفات بفضيلة باهرة على حِيالها، وتنزيلًا لِاستقلالها منزلةَ استقلال الموصوف بها.

﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتّصافهم بها. وما فيه مِن معنى البعد للإشعار ببُعد رتبتهم في الفضل، أي: أولئك المنعوتون بما فُصِّل مِن النعوت الجليلة خاصّةً دون غيرهم ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: في نَيل الخيرات التي مِن جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة، كما في قوله تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران، ١٤٨/٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت، ٢٧/٢٩]، فقد أثبت لهم ما نُفي عن أضدادهم، خلا أنّه غُيِّر الأسلوبُ حيث لم يُقَل: أولئك نسارع لهم في الخيرات؛ بل أُسنِد المسارعة إليهم إيماءً إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم.

وإيثار كلمةِ ﴿فِي﴾ على كلمة "إلى" للإيذان بأنّهم متقلِّبون في فنون الخيرات، لا أنّهم خارجون عنها متوجّهون إليها بطريق المسارعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ الآية [آل عمران، ١٣٣/٣].

﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ / أي: إيّاها سابقون، و"اللام" لتقوية العمل كما في قوله [١٤٣ظ]
تعالى: ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون، ٦٣/٢٣]، أي: ينالونها قَبل الآخرة، حيث عُجّلت لهم في الدنيا. وقيل: المراد بـ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ الطاعات. والمعنى: يَرغبون في الطاعات والعبادات أشدَّ الرغبة، وهم لأجلها فاعلون السبقَ، أو لأجلها سابقون الناسَ، والأوّل هو الأَولى.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جملة مستأنفة سيقت للتحريض على ما وصف به "السابقون" مِن فعل الطاعات المؤدّي إلى نيل الخيرات ببيان سهولته،

وكونِه غيرَ خارج عن حدّ الوسع والطاقة، أي: عادتنا جارية على أن لا نكلّف نفسًا مِن النفوس إلّا ما في وسعها، على أنّ المراد استمرار النفي بمعونة المقام، لا نفيُ الاستمرار كما مرّ مرارًا.

أو للترخيص[1] فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين ببيان أنّه تعالى لا يكلّف عباده إلّا ما في وُسعهم، فإن لم يبلغوا في فعل الطاعات مراتب السابقين فلا عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وُسعَهم. قال مقاتل: «مَن لم يستطع القيام فليصلّ قاعدًا، ومَن لم يستطع القعود فلْيُومِ إيماءً».[2]

وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾... إلخ تتمّة لِما قبله ببيان أحوال ما كُلِّفوه مِن الأعمال وأحكامها المترتّبة عليها مِن الحساب والثواب والعقاب، والمراد بـ"الكتاب" صحائف الأعمال التي يقرءونها عند الحساب حسبما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية، ٢٩/٤٥]، أي: عندنا كتاب قد أُثبِت فيه أعمال كلّ أحد على ما هي عليه، أو أعمالُ السابقين والمقتصِدين جميعًا، لا أنّه أُثبت فيه أعمال الأوّلين، وأُهمل أعمال الآخرين، ففيه قَطع معذرتهم أيضًا.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلّق بـ﴿يَنطِقُ﴾، أي: يُظهِر الحقّ المطابقَ للواقع على ما هو عليه ذاتًا ووصفًا، ويبيّنه للناظر كما يبيّنه النطق، ويُظهِره / للسامع، فيُظهِر هنالك جلائل أعمالهم ودقائقها، ويُرتِّبُ عليها أجزيتَها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ. [١٤٤و]

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بيان لفضله تعالى وعدله في الجزاء إثرَ بيان لطفه في التكليف وكتب الأعمال، أي: لا يُظلَمون في الجزاء بنَقص ثواب أو بزيادة عذاب؛ بل يُجزَون بقدر أعمالِهم التي كُلِّفوها، ونطقت بها صحائفها بالحقّ. وقد جُوِّز أن يكون تقريرًا لِما قبله مِن التكليف وكتبِ الأعمال، أي: لا يُظلَمون بتكليف ما ليس في وُسعهم، ولا بعدم كَتب بعض أعمالهم التي مِن جملتها

---

١ السياق: سيقت للتحريض... أو للترخيص...

٢ اللباب لابن عادل، ١٤/٢٣٥. وفي تفسير مقاتل، ٣/١٦٠: «﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يقول: لا نُكلّف نفسًا مِن العمل إلّا ما أطاقت».

أعمال المقتصِدين بناءً على قصورها عن درجة أعمال السابقين؛ بل يُكتَب كلّ منها على مقاديرها وطبقاتها.

والتعبير عمّا ذُكر مِن الأمور بـ"الظلم" مع أنّ شيئًا منها ليس بظلمٍ على ما تقرّر مِن أنّ الأعمال الصالحة لا تُوجب أصل الثواب فضلًا عن إيجابِ مرتبةٍ معيّنةٍ منه حتّى يُعَدّ الإثابةُ بما دونها نقصًا، وكذلك الأعمال السيّئة لا تُوجب درجةً معيّنةً مِن العذاب حتّى يُعَدّ التعذيب بما فوقها زيادة، وكذا تكليفُ ما في الوُسع وكَتبُ الأعمال ليسا ممّا يجب عليه سبحانه حتّى يُعَدّ تركُهما ظلمًا لكمال تنزيه ساحة السبحان عنها بتصويرها بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى وتسميتِها باسمه.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ إضراب عمّا قبله. والضمير للكفرة، لا للكلّ كما قبله، أي: بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها مِن هذا الذي بُيِّن في القرآن مِن أنّ لديه تعالى[1] كتابًا ينطق بالحقّ، ويُظهِر لهم أعمالهم السيّئةَ على رءوس الأشهاد فيُجزَون بها، كما يُنبئ عنه ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾... إلخ [المؤمنون، ٦٦/٢٣]. وقيل: ممّا عليه أولئك الموصوفون بالأعمال الصالحة.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ سيّئة كثيرة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن كون قلوبهم في غفلة عظيمة ممّا ذُكر، / وهي فنونُ كفرهم ومعاصيهم التي مِن جملتها [١٤٤ظ] ما سيأتي مِن طعنهم في القرآن، حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون، ٦٧/٢٣]. وقيل: متخطّية لِما وُصف به المؤمنون مِن الأعمال الصالحة المذكورة، وفيه أنّه لا مزيّة في وصف أعمالهم الخبيثة بالتخطّي للأعمال الحسنة للمؤمنين. وقيل: متخطّية عمّا هم عليه مِن الشرك،[2] ولا يخفى بُعده لعدم جريان ذكره.

---

[1] س - تعالى.

[2] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩١/٤.

﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ مستمرّون عليها، معتادون فعلها، ضارُّون بها، لا يكادون يَبرحونها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ أي: متنعّميهم، وهم الذين أمدّهم الله تعالى بما ذُكر مِن المال والبنين، وحتّى مع كونها غايةً لأعمالهم المذكورة، مبدأً لِما بعدها مِن مضمون الشرطيّة، أي: لا يزالون يعملون أعمالهم إلى حيث إذا أخذنا رؤساءهم ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ قيل: هو القتل والأسر يومَ بدرٍ، وقيل: هو الجوع الذي أصابهم حين دعا عليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «اللّهمّ اشْدُدْ وَطأتَك على مُضَر، واجعلها عليهم سنين كسِنِي يوسف». فَقُحِطُوا حتّى أكلوا الكلابَ والجِيَفَ والعظامَ المحرَقة والأولاد.[1]

والحقّ أنّه العذاب الأخروي، إذ هو الذي يفاجِئون عنده الجُؤارَ، فيجابون بالردّ والإقناط عن النصر. وأمّا عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جُؤار حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون، ٧٦/٢٣]، فإنّ المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر مِن القتل والأسر حتمًا.

وأمّا عذاب الجوع فإنّ أبا سفيان وإن تضرّع فيه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لكن لم يَرُدَّ عليه بالإقناط، حيث رُوي أنّه عليه السلام قد دعا بكشفه فكُشِف عنهم ذلك.[2]

﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ أي: فاجَئُوا الصراخ بالاستغاثة مِن الله عزّ وجلّ كقوله تعالى: ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل، ٥٣/١٦]، وهو جواب الشرط.

وتخصيص مترفيهم بما ذكر مِن الأخذ بالعذاب ومفاجأةِ الجُؤار مع عمومه لغيرهم أيضًا لغاية ظهور انعكاس حالهم وانتِكاس أمرهم، وكونِ ذلك

---

١ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٥١/٧؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٣٧/١٤. وهو في **صحيح البخاري**، ١٦٠/١ (٨٠٤)؛ ١٣١/٦ (٤٨٢١)؛ **وصحيح مسلم**، ٤٦٦/١ (٦٧٥)؛ ٢١٥٦/٤ (٢٧٩٨).

٢ انظر: **جامع البيان** للطبري، ٣٩/١٧؛ **والمستدرك** للحاكم، ٤٢٨/٢ (٣٤٨٨).

أشقَّ عليهم، ولأنّهم مع كونهم متمنِّعين مَحميّين بحماية غيرهم مِن المنَعة والحشَم حينَ لَقُوا ما لَقُوا مِن الحالة الفظيعة، فلَأن يلقاها مَن عداهم مِن الحُماة والخدَم أولى وأقدم.

﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ على إضمار القول مسوقًا لردّهم وتبكيتهم وإقناطِهم عمّا علَّقوا به أطماعَهم الفارغة مِن الإغاثة والإعانة مِن جهته تعالى. وتخصيص ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ بالذكر لتهويله والإيذانِ بتَفْويتِهم وقتَ الجُؤار. وقد جُوّز كونُه جواب الشرط، وأنت خبير بأنّ المقصود الأصلي في الجملة الشرطيّة هو الجواب، فيؤدّي ذلك إلى أن يكون مفاجأتُهم إلى الجؤار غيرَ مقصود أصلي.

/ وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ تعليل للنهي عن الجؤار ببيان عدم [١٤٥و] إفادته ونفعه، أي: لا يلحقكم مِن جهتنا نصرة تُنجّيكم ممّا دَهِمكم.

وقيل: لا تُغاثون ولا تُمنَعون منّا،[1] ولا يساعده سباق النظم الكريم؛ لأنّ جُؤارهم ليس إلى غيره تعالى حتّى يُرَدَّ عليهم بعدم منصوريّتهم مِن قِبَله، ولا سياقُه، فإنّ قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾... إلخ صريح في أنّه تعليل لِما ذكرنا مِن عدم لُحوق النصر مِن جهته تعالى بسبب كفرهم بالآيات، ولو كان النصر المنفيّ متوَهَّمًا مِن الغير لَعُلِّل بعجزه وذُلّه، أو بعزّة الله تعالى وقوّته، أي: قد كانت آياتي تتلى عليكم في الدنيا ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي: تُعرِضون عن سماعها أشدَّ الإعراض، فضلًا عن تصديقها والعمل بها. و"النكوص": الرجوعُ قَهقَرى.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: بالبيت الحرام، أو بالحرَم، والإضمارُ قبل الذكر لاشتهار استكبارهم وافتخارهم بأنّهم خُدّامه وقُوّامه، أو بكتابي الذي عُبّر عنه بـ﴿آياتى﴾،

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/١٩٤.

على تضمين "الاستكبار" معنى التكذيب، أو لأنّ استكبارهم على المسلمين قد حدث بسبب استماعه.

ويجوز أن يتعلّق "الباء" بقوله تعالى: ﴿سَٰمِرًا﴾ أي: تسمُرون[1] بذكر القرآن وبالطعن فيه، حيث كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يَسمُرون، وكانت عامّة سَمَرهم ذكر القرآن وتسميتَه سحرًا وشِعرًا. و"السامِر" كالحاضر في الإطلاق على الجمع. وقيل: هو مصدر جاء على لفظ الفاعل. وقُرئ: "سُمَّرًا"،[2] و"سُمَّارًا".[3]

وأن تتعلّق بقوله تعالى: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ مِن "الهَجْر" بالفتح، بمعنى الهذيان أو الترك، أي: تَهذون في شأن القرآن، أو تتركونه، أو مِن "الهُجْر" بالضمّ، وهو الفُحش، ويؤيّده قراءةُ "تُهْجِرُونَ" مِن "أهجَر في مَنطِقه" إذا أَفحش فيه. وقُرئ: "تُهَجِّرُونَ"[4] مِن "هَجّر" الذي هو مبالغة في "هَجَرَ" إذا هذَى.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

[١٤٥ظ] ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ / ٱلْقَوْلَ﴾ "الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه، و"الفاء" للعطف على مقدّر ينسحب عليه الكلام، أي: أَفعلوا ما فعلوا مِن النكُوص والاستكبار والهَجر، فلم يتدبّروا القرآن ليعرفوا بما فيه مِن إعجاز النظم، وصحّةِ المدلول، والإخبارِ عن الغيب، أنّه الحقّ مِن ربّهم، فيؤمنوا به فضلًا عمّا فعلوا في شأنه مِن القبائح؟

و﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى "بل" للإضراب والانتقال عن التوبيخ بما ذُكر إلى التوبيخ بآخر، و"الهمزةِ" لإنكار الوقوع، لا لإنكار الواقع، أي: بل أجاءهُم مِن الكتاب ما لم يأتِ آباءهم الأوّلين حتّى استبدَعوه واستبعَدوه، فوقعوا فيما وقعوا فيه

---

١ ط س: يسمرون.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم وأبي حَيوة وابن مُحَيصن وعِكرمة والزعفراني ومحبوب عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٦؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٧٢/٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وزيد بن علي وأبي رجاء وأبي نهيك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٦؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٧٢/٧.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٧.

مِن الكفر والضلال. يعني: أنّ مَجيء الكتب مِن جهته تعالى إلى الرسل عليهم السلام سنّة قديمة له تعالى لا يكاد يتسنّى إنكاره، وأنّ مَجيء القرآن على طريقته، فمِن أين ينكرونه؟

وقيل: أم جاءهم مِن الأمْن مِن عذابه تعالى ما لم يأتِ آباءَهم الأوّلين، كإسماعيل عليه السلام وأعقابِه مِن عدنان وقحطان ومُضَر وربيعة وقُسّ والحارث بن كعب[1] وأسد بن خزيمة وتميم بن مرّة وتبّع وضبّة بن أُدّ، فآمنوا به تعالى وبكتبه ورسله وأطاعوه.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ إضراب وانتقال مِن التوبيخ بما ذُكر إلى التوبيخ بوجه آخر. و"الهمزة" لإنكار الوقوع أيضًا، أي: بل ألَم يعرفوه عليه السلام بالأمانة والصدق وحسن الأخلاق وكمال العلم مع عدم التعلّم مِن أحد وغيرِ ذلك ممّا حازه مِن الكمالات اللائقة بالأنبياء عليهم السلام.

﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: جاحدون بنبوّته، فجحودهم بها مترتّب على عدم معرفتهم بشأنه عليه السلام، ومِن ضرورة انتفاء المبنَى بطلانُ ما بُني عليه، أو فهم غير عارفين له عليه السلام، فهو تأكيد لِما قبله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ انتقال إلى توبيخ آخر. و"الهمزة" لإنكار الواقع كالأُولى، أي: بل أيقولون: به جنّة، أي: جنون، مع أنّه أرجح الناس عقلًا، وأثقبُهم ذهنًا، وأتقنُهم رأيًا، وأوفرُهم رَزانةً؟

ولقد رُوعي في هذه التوبيخات الأربعة -التي اثنان منها متعلّقان بالقرآن، والباقيان به عليه السلام- الترقّي مِن الأدنى إلى الأعلى، حيث وُبِّخوا أوّلًا

---

[1] بنو الحارث بن كعب بن سعد بن زيد بن مناة بن تميم، وهم بطن مِن تميم مِن العدنانيّة، قيل: هم أشدُّ العرب بأسًا، كانوا لا يَغزون ولا يُغزون. انظر: **أنساب الأشراف** للبلاذُري، ٥/٣٢؛ **ونهاية الأرب** للقلقشندي، ١/ ٤٧.

بعدم التدبّر، وذلك يتحقّق مع كون القول غيرَ مُتَعَرَّضٍ له بوجه مِن الوجوه، / ثمّ وُبّخوا بشيء لو اتّصف به القول لكان سببًا لعدم تصديقهم به، ثمّ وُبّخوا [١٤٦و] بما يتعلّق بالرسول صلّى الله عليه وسلّم مِن عدم معرفتهم به عليه السلام، وذلك يتحقّق بعدم المعرفة بخير ولا شرّ، ثمّ بما لو كان فيه عليه السلام ذلك لقدَح في رسالته عليه السلام.

﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ إضراب عمّا يدلّ عليه ما سبق، أي: ليس الأمر كما زعموا في حقّ القرآن والرسول عليه السلام؛ بل جاءهم عليه السلام بالحقّ، أي: الصدقِ الثابتِ الذي لا مَحيد عنه أصلًا، ولا مدخل فيه للباطل بوجه مِن الوجوه.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ﴾ مِن حيث هو حقّ، أيّ حقّ كان، لا لهذا الحقّ فقط، كما يُنبئ عنه الإظهار في موقع الإضمار.

﴿كَٰرِهُونَ﴾ لِما في جِبلّتهم مِن الزيغ والانحراف المناسب للباطل، ولذلك كرِهوا هذا الحقّ الأبلَج، وزاغوا عن الطريق الأنهَج. وتخصيص أكثرِهم بهذا الوصف لا يقتضي إلّا عدمَ كراهة الباقين لكلّ حقّ مِن الحقوق، وذلك لا ينافي كراهتهم لهذا الحقّ المبين، فتأمّل.

وقيل: تقييد الحكم بالأكثر لأنّ منهم مَن ترك الإيمان استِنكافًا مِن توبيخ قومه، أو لِقِلّة فِطنته، وعدمِ تفكّره، لا لكراهته الحقَّ. وأنت خبير بأنّ التعرّض لعدم كراهة بعضهم للحقّ مع اتّفاق الكلّ على الكفر به ممّا لا يساعده المقام أصلًا.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ استئناف مَسوق لبيان أنّ أهواءهم الزائغة التي ما كرهوا الحقَّ إلّا لعدم موافقته إيّاها مقتضيةٌ للطامّة، أي: لو كان ما كرهوه مِن الحقّ الذي مِن جملته ما جاء به عليه السلام موافقًا لأهوائهم الباطلة ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلّيّة؛ لأنّ مناط النظام ليس إلّا ذلك. وفيه مِن تنويه شأن الحقّ والتنبيه على سموّ مكانه ما لا يخفى.

وأمّا ما قيل: لو اتّبع الحقّ الذي جاء به عليه السلام أهواءَهم وانقلب شِركًا لَجاء الله تعالى بالقيامة، ولَأهلَك العالَم ولم يؤخِّر،[١] ففيه أنّه لا يلائم فرضَ مَجيئه عليه السلام به، وكذا ما قيل: لو كان في الواقع إلهان؛[٢] لا يناسب المقام.

وأمّا ما قيل: لو اتّبع الحقّ أهواءهم لَخرَج / عن الإلهيّة،[٣] ممّا لا احتمال له أصلًا. [١٤٦ظ]

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ انتقال مِن تشنيعهم بكراهة الحقّ الذي به يقوم العالَم إلى تشنيعهم بالإعراض عمّا جُبِل عليه كلّ نفس مِن الرغبة فيما فيه خيرها. والمراد بـ"الذِّكر" القرآن الذي هو فخرهم وشرفهم، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٤]، أي: بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذي كان يجب عليهم أن يُقبِلوا عليه أكملَ إقبال.

﴿فَهُمْ﴾ بما فعلوا مِن النكوص ﴿عَن ذِكْرِهِم﴾ أي: فخرهم وشرفهم خاصّةً ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا عن غير ذلك ممّا لا يوجِب الإقبال عليه والاعتناءَ به. وفي وضع الظاهر مَوضع الضمير مزيد تشنيع لهم وتقريعٍ. و"الفاء" لترتيب ما بعدها مِن إعراضهم عن ذكرهم على ما قبلها مِن إيتاء ذكرهم، لا لترتيب الإعراض على الإيتاء مطلقًا، فإنّ المستتبع لكون إعراضهم إعراضًا[٤] عن ذكرهم هو إيتاء ذكرهم، لا الإيتاءُ مطلقًا.

وفي إسناد "الإتيان بالذكر" إلى "نون" العظَمة بعد إسناده إلى ضميره عليه السلام تنويهٌ لشأن النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم، وتنبيهٌ على كونه بمثابة عظيمة منه عزّ وجلّ.

وفي إيراد القرآن الكريم عند نسبته إليه عليه السلام بعنوان "الحقّيّة" وعند نسبته إليه تعالى بعنوان "الذِّكر" مِن النكتة السرّيّة والحكمة العبقريّة ما لا يخفى؛ فإنّ التصريح بحقّيّته المستلزمةِ لحقّيّة مَن جاء به هو الذي يقتضيه مقام حكاية ما قاله المبطِلون في شأنه. وأمّا التشريف فإنّما يليق به تعالى، لا سيّما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحدُ المشرَّفين.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣/١٩٦.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٩٢.

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٩٢.

٤ م ط س - إعراضًا. ["صح" في هامش م]

وقيل: المراد بـ"الذِّكر" ما تمنَّوه بقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات، ١٦٨/٣٧]. وقيل: وَعظُهم، وأُيّد ذلك بأنّه قُرئ: "بِذِكْرَاهُمْ".[١] والتشنيع على الأوّلين أشدّ، فإنّ الإعراض عن وعظهم ليس في مثابة إعراضهم عن شرفهم، أو عن ذكرهم الذي يتمنَّونه في الشناعة والقباحة.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ انتقال مِن توبيخهم بما ذُكر مِن قولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾[٢] إلى التوبيخ بوجه آخر، كأنّه قيل: أم يزعمون أنّك تسألهم على أداء الرسالة ﴿خَرْجًا﴾ أي: جُعلًا، فلأجل ذلك لا يؤمنون بك.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي: رزقُه في الدنيا وثوابُه في الآخرة، تعليل لنفي السؤال المستفاد مِن الإنكار، أي: لا تسألهم ذلك، فإنّ ما رزَقك الله تعالى في الدنيا والعُقبى خير لك مِن ذلك. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن تعليل الحكم وتشريفه عليه السلام ما لا يخفى.

و"الخَرْج" بإزاء "الدَّخْل"، يقال لكلّ ما تُخرجه إلى غيرك. و"الخَراج" غالب في الضريبة على الأرض. وقيل: "الخَرْج": ما تبرّعتَ به، و"الخَراج": ما لَزِمك. وقيل: "الخَرْج" أخصّ مِن "الخَراج"، ففي النظم الكريم إشعار بالكثرة واللزوم. وقُرئ: "خَرْجًا فَخَرْجُ"،[٣] و"خَرَاجًا فَخَرَاجُ".[٤] ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ تقرير لخيريّة خَراجه تعالى.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تشهد العقول السليمة باستقامته، ليس فيه شائبة اعوجاج تُوهم اتّهامَهم لك بوجهٍ مِن الوجوه، ولقد ألزمَهم الله عزّ وعلا[٥]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٧٥/٧.

٢ المؤمنون، ٧٠/٢٣.

٣ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.

٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.

٥ س: تعالى.

وأزاحَ عِللهم في هذه الآيات، حيث حصر أقسام ما يؤدّي إلى / الإنكار والاتّهام، [١٤٧و]
وبيّن انتفاء ما عدا كراهتهم للحقّ وقلّة فطنتهم.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ وُصِفوا بذلك تشنيعًا لهم بما هم عليه مِن الانهماك في الدنيا، وزعمِهم أن لا حياة إلّا الحياة الدنيا، وإشعارًا بعلّة الحكم، فإنّ الإيمان بالآخرة وخوفَ ما فيها مِن الدواهي مِن أقوى الدواعي إلى طلب الحقّ وسلوك سبيله.

﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: عن جنس الصراط ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ لعادلون، فضلًا عن الصراط المستقيمِ، أو عن الصراط المستقيم الذي تدعوهم إليه. والأوّل أدلّ على كمال ضلالهم وغاية غوايتهم، لِما أنّه يُنبئ عن كون ما ذهبوا إليه ممّا لا يطلق عليه اسم الصراط ولو كان مُعوجًّا.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي: قَحط وجَدب. ﴿لَّلَجُّوا۟﴾ لتمادَوا ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ إفراطِهم في الكفر والاستكبار وعداوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: عامِهين عن الهدى.

رُوي أنّه لمّا أسلم ثُمامة بن أثال الحنفي[1] ولحِق باليمامة، ومنع المِيرة[2] مِن أهل مكّة، وأخذَهم الله تعالى بالسنين حتّى أكلوا العِلهزَ،[3] جاء أبو سفيان إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال له: «أنشُدك اللهَ والرحِم، ألستَ تزعم

---

١ هو ثُمامة بن أثال بن النعمان اليمامي، مِن بني حنيفة، أبو أمامة (ت. ١٢هـ/٦٣٣م). الصحابي، كان سيّدَ أهل اليمامة. ولمّا ارتدّ أهل اليمامة في فتنة مسيلِمة ثبت هو على إسلامه، ولحِق بالعلاء بن الحضرمي في جمع مِمّن ثبت معه، فقاتل معه المرتدّين مِن أهل البحرين، فلمّا ظفِروا اشترى ثُمامة حلّة كانت لكبيرهم، فرآها عليه ناس مِن بني قيس بن ثعلبة، فظنّوا أنّه هو الذي قتله وسلبه، فقتلوه. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٥٢٥/١؛ **والأعلام** للزركلي، ١٠٠/٢.

٢ المِيرة، بالكسر: جَلب الطعام. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «مير».

٣ العَلهَز: الوبَر والدّم. انظر: **جامع البيان** للطبري، ٣٩/١٧؛ **والمستدرك** للحاكم، ٤٢٨/٢ (٣٤٨٨).

أنّك بُعِثت رحمةً للعالمين؟» قال: «بلى»، فقال: «قتلتَ الآباء بالسيف، والأبناءَ بالجوع»، فنزلت.[١]

والمعنى: لو كشفنا عنهم ما أصابهم مِن القَحط والهُزال برحمتنا إيّاهم ووجَدوا الخِصب لَارتدّوا إلى ما كانوا عليه مِن الإفراط في الكفر والاستكبار، ولَذهب عنهم هذا التملّق والإبلاس، وقد كان كذلك.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ استئناف مسوق للاستشهاد على مضمون الشرطيّة. والمراد بـ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ ما نالَهم يوم بدر مِن القتل والأسر، وما أصابهم مِن فنون العذاب التي مِن جملتها القَحط المذكور. و"اللام" جواب قسَم محذوف، أي: وباللهِ[٢] لقد أخذناهم بالعذاب، ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ بذلك، أي: لم يخضعوا ولم يتذلّلوا -على أنّه إمّا "استِفعال" مِن "الكَون"؛ لأنّ الخاضع ينتقل مِن كَون إلى كَون، أو "افتِعالٌ" مِن "السكون" قد أُشبِعت فتحتُه، كـ"مُنتَزاح" في "مُنتَزح"- بل أقاموا على ما كانوا عليه مِن العتوّ والاستكبار.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ اعتراض مقرّر لمضمون ما قبله، أي: وليس مِن عادتهم التضرّع إليه تعالى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ هو عذاب الآخرة، كما ينبئ عنه التهويل بفتح الباب، والوصفُ بالشدّة. وقُرئ: "فَتَّحْنَا" بالتشديد. ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: متحيّرون آيِسون مِن كلّ خير، أي: مَحنّاهم بكلّ مِحنة مِن القتل والأسر والجوع وغير ذلك، فما رُئي منهم لينُ مَقادةٍ[٣] وتوجّهٍ إلى الإسلام قطّ.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٥٣/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ١٩٧/٣. وأخرجه بنحوه الطبري في جامع البيان، ٣٩/١٧؛ والحاكم في المستدرك، ٤٢٨/٢ (٣٤٨٨).

٢ ط س: وتالله.

٣ "لينُ مَقادة": مستعارٌ لسهولة تأتّي الحقّ، مِن قولهم: "هو يقود الخيلَ ويقتادها". الأساس: "قاد الفرس بمَقاودها"، وهو حبلٌ يُشدّ في العنق للقياد. فتوح الغيب للطيبي، ٦١٤/١٠.

وأمّا ما أظهره أبو سفيان فليس مِن الاستكانة له تعالى والتضرّع إليه تعالى في شيء، وإنّما هو نوع خُنوع إلى أن يتمّ غرَضه، فحاله كما قيل: «إذا جاع ضَغا،[1] وإذا شبع طغا».[2] وأكثرهم مستمرّون على ذلك إلى أن يرَوا عذاب الآخرة، فحينئذ يُبلِسون.

وقيل: المراد بـ"الباب" الجوع، فإنّه أشدّ وأعمّ مِن القتل والأسر. والمعنى: أخذناهم أوّلًا بما جرى عليهم يوم بدر مِن قتل صناديدهم وأسرِهم، فما وُجد منهم تضرّع واستكانة حتّى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أطمّ وأتمّ، فأُبلِسوا الساعة، وخضعت رقابهم، وجاءك أعتاهم وأشدّهم شكيمةً في العِناد يستعطفك. والوجه هو الأوّل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتشاهدوا بها الآيات التنزيليّة والتكوينيّة ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكّروا بها ما تشاهدونها، وتعتبروا اعتبارًا لائقًا، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: شكرًا قليلًا غيرَ معتَدّ به، تشكرون تلك النعم الجليلة لِما أنّ العمدة في الشكر صَرف تلك القوى التي هي في أنفسها نِعم باهِرة إلى ما خُلِقت هي له، وأنتم تُخِلّون بذلك إخلالًا عظيمًا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ / أي: خلَقكم وبثّكم فيها بالتناسل، ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تُجمَعون يوم القيامة بعد تفرّقكم، لا إلى غيره، فما لكم لا تؤمنون به ولا تشكرونه. [١٤٧ظ]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ مِن غير أن يشاركه في ذلك شيء مِن الأشياء،

---

١ ضَغا الثعلب والسنّور يَضْغُو ضَغْوًا وضُغاءً، أي: صاح. وكذلك صوت كلّ ذليل مَقهور. **الصحاح** للجوهري، «ضغا».

٢ **في البيان والتبيين** للجاحظ، ١١٦/٣: «قيل لعامر بن عبد قيس: ما تقول في الإنسان؟ قال: ما عسى أن أقول فيمَن إذا جاع ضرَع، وإذا شبع طغى».

﴿وَلَهُ﴾ خاصّةً ﴿ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: هو المؤثّر في اختلافهما، أي: تعاقبهما، أو اختلافِهما ازديادًا وانتقاصًا، أو لأمره وقضائه اختلافُهما.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: ألا تتفكّرون فلا تعقلون؟ أو أتتفكّرون فلا تعقلون بالنظر والتأمّل أنّ الكلّ منّا، وأنّ قدرتنا تعمّ جميع الممكنات التي مِن جملتها البعث؟ وقُرئ: "يَعْقِلُونَ"[1] على أنّ الالتفات إلى الغيبة لحكاية سوء حال المخاطَبين لغيرهم، وقيل: على أنّ الخطاب الأوّل لتغليب المؤمنين،[2] وليس بذاك.

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿بَلْ قَالُوا۟﴾ عطف على مُضمَر يقتضيه المقام، أي: فلم يعقِلوا؛ بل قالوا ﴿مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: آباؤهم ومَن دانَ بدِينهم.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ تفسير لِما قبله مِن المُبهم، وتفصيلٌ لِما فيه مِن الإجمال، وقد مرّ الكلام فيه.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ أي: البعث ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلّق بالفعل مِن حيث إسنادُه إلى آبائهم، لا إليهم، أي: ووُعِد آباؤنا مِن قَبلُ، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿ءَابَآؤُنَا﴾، أي: كائنين مِن قبلُ.

﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أكاذيبهم التي سطّروها، جمع "أُسطورة"، كـ"أُحدوثة" و"أُعجوبة". وقيل: جمع "أسطار" جمعِ "سَطَر".

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ مِن المخلوقات تغليبًا للعقلاء على غيرهم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جوابُه محذوف ثقةً بدلالة الاستفهام عليه، أي: إن كنتم تعلمون

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٨٠/٧.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٣/٤.

شيئًا ما فأخبِروني به، فإنّ ذلك كافٍ في الجواب. وفيه مِن المبالغة في وضوح الأمر وفي تجهيلهم ما لا يخفى، أو إن كنتم تعلمون ذلك فأخبِروني، وفيه استهانة بهم، وتقريرٌ لجَهلهم، ولذلك أُخبِر بجوابهم قبل أن يجيبوا حيث قيل: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأنَّ بديهةَ العقلِ تضطرُّهم إلى الاعترافِ بأنّه تعالى خالقُها.

﴿قُلْ﴾ أي: عند اعترافهم بذلك تبكيتًا لهم: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أتعلمون ذلك، أو أتقولون ذلك / فلا تتذكّرون أنّ مَن فطَر الأرض وما فيها ابتداءً قادرٌ على إعادتها ثانيًا؟ فإنّ البَدء ليس بأهون مِن الإعادة؛ بل الأمر بالعكس في قياس العقول. وقُرئ: "تَتَذَكَّرُونَ"[1] على الأصل. [١٤٨و]

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أُعيدَ "الربّ" تنويهًا لشأن العرش، ورفعًا لمحلّه مِن أن يكون تبعًا لـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وجودًا وذِكرًا. ولقد روعي في الأمر بالسؤال الترقّي مِن الأدنى إلى الأعلى.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ بـ"اللام" نظرًا إلى معنى السؤال، فإنّ قولك: "مَن رَبُّه؟" و"لِمَن هو؟" في معنى واحد. وقُرئ هو وما بعده بغير لام[2] نظرًا إلى لفظ السؤال.

﴿قُلْ﴾ إفحامًا لهم وتوبيخًا: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أتعلمون ذلك ولا تَقُون أنفسَكم عقابَه بعدم العمل بموجَب العلم، حيث تكفرون به، وتُنكرون البعث، وتُثبتون له شريكًا في الربوبيّة؟

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي بغير نسبة. انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٩٣. وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة: "تَذَكَّرُونَ" بتشديد الذال. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٦.

٢ أي: "سَيَقُولُونَ اللهُ". قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٩.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ممّا ذُكر وما لم يُذكر، أي: ملكه التامّ القاهر، وقيل: خزائنه. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ أي: يُغيث غيره إذا شاء، ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: ولا يُغِيث أحد عليه، أي: لا يمنع أحد منه بالنصر عليه. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: شيئًا ما، أو ذلك، فأجيبوني على ما سبق.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: لله ملكوت كلّ شيء، وهو الذي يُجير ولا يُجار عليه، ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي: فمِن أين تُخدعون وتُصرَفون عن الرشد مع علمكم به إلى ما أنتم عليه مِن الغَيّ؟ فإنّ مَن لا يكون مسحورًا مختلّ العقل لا يكون كذلك.

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا مَحيد عنه مِن التوحيد والوعدِ بالبعث، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما قالوا مِن الشرك وإنكار البعث.

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ كما يقوله النصارى والقائلون: إنّ الملائكة بنات الله، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا. ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ يشاركه في الألوهيّة كما يقوله عبَدة الأوثان وغيرهم. ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ جوابٌ لمُحاجّتهم، وجزاءٌ لشرطٍ قد حُذف لدلالة ما قبله عليه، أي: لو كان معه / آلهة كما يزعمون لَذهب [١٤٨ظ] كلّ واحد منهم بما خلقه، واستبدّ به،[1] وامتاز مُلكه عن مُلك الآخرين، ووقع بينهم التغالب والتحارب كما هو الجاري فيما بين الملوك. ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

---

[1] ط س - به.

فلم يكن بيده وحده ملكوت كلّ شيء، وهو باطلٌ لا يقول به عاقل قطّ مع قيام البرهان على استناد جميع الممكنات إلى واجب الوجود واحدٍ بالذات.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: يصفونه مِن أن يكون له أنداد وأولاد.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٩٢﴾

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بالجرّ على أنّه بدَل مِن الجلالة. وقيل: صفة لها. وقُرئ بالرفع[1] على أنّه خبر مبتدأ محذوف. وأيًّا ما كان فهو دليل آخر على انتفاء الشريك بناءً على توافقهم في تفرّده تعالى بذلك، ولذلك رُتِّب عليه بالفاء قولُه تعالى: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فإنّ تفرّده تعالى بذلك موجب لتعاليه عن أن يكون له شريك.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ۝٩٣ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٤﴾

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى﴾ أي: إن كان لا بدّ مِن أن تُريَنّي ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ مِن العذاب الدنيوي المستأصِل، وأمّا العذاب الأخروي فلا يناسبه المقام. ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: قرينًا لهم فيما هم فيه مِن العذاب.

وفيه إيذان بكمال فظاعة ما وُعِدوه مِن العذاب، وكونِه بحيث يجب أن يستعيذ منه مَن لا يكاد يمكن أن يَحيق به، وردٌّ لإنكارهم إيّاه واستعجالِهم به على طريقة الاستهزاء به.

وقيل: أُمِر به عليه السلام هضمًا لنفسه. وقيل: لأنّ شُؤم الكفرة قد يَحيق بمَن وراءهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال، ٨/٢٥].

ورُوي أنّه تعالى أخبر نبيَّه عليه السلام بأنّ له في أمّته نقمةً، ولم يطلعه على وقتها، فأمره بهذا الدعاء، وتكريرِ النداء.[2] وتصدير كلّ مِن الشرط والجزاء به لإبراز كمال الضراعة والابتهال.

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٩.

[2] عن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٠١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٩٤.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ مِن العذاب ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ ولكنّا نؤخّره لِعِلمنا بأنّ بعضهم أو بعضَ أعقابهم سيؤمنون، أو لأنّا لا نعذّبهم وأنت فيهم. وقيل: قد أراه ذلك، / وهو ما أصابهم يوم بدر، أو فتح مكّة،[1] ولا يخفى بعده، فإنّ [١٤٩و] المتبادَر أن يكون ما يستحقّونه مِن العذاب الموعود عذابًا هائلًا مستأصِلًا لا يظهر على يديه عليه السلام للحكمة الداعية إليه.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وهو الصفح عنها، والإحسان في مقابَلتها، لكن لا بحيث يؤدّي إلى وَهَن في الدين. وقيل: هي كلمة التوحيد، و﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ الشرك. وقيل: هو الأمر بالمعروف، و﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ المنكر، وهو أبلغ مِن: "ادفع بالحسنة السيّئة"، لِما فيه مِن التنصيص على التفصيل. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول في الموضعين للاهتمام.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: بما يصفونك به، أو بوصفهم إيّاك على خلاف ما أنت عليه. وفيه وعيد لهم بالجزاء والعقوبة، وتسليةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وإرشادٌ له عليه السلام إلى تفويض أمره إليه تعالى.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: وَساوسهم المغرية على خلاف ما أُمرت به مِن المحاسن التي مِن جملتها دفع السيّئة بالحسنة. وأصل "الهمز" النَّخس، ومنه "مِهماز الرائِض". شُبّه حثّهم للناس على المعاصي بهَمزِ الرائض الدوابَّ على الإسراع أو الوثب. والجمع للمرّات، أو لتنوّع الوساوس، أو لتعدّد المضاف إليه.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أُمر عليه السلام بأن يَعوذ به تعالى مِن حضورهم

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٤/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٨٢/٧.

بعد ما أُمر بالعوذ به مِن همزاتهم للمبالغة في التحذير عن ملابستهم. وإعادة الفعل[١] مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به، وعرضِ نهاية الابتهال في الاستدعاء، أي: أعوذ بك مِن أن يحضروني، ويَحوموا حولي في حال مِن الأحوال.

وتخصيص حال الصلاة وقراءة القرآن -كما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما-[٢] وحالِ حلول الأجل -كما رُوي عن عِكرمة رحمه الله-[٣] لأنّها أحرى الأحوال بالاستعاذة منها.[٤]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي يُبتدأ بها الكلام، دخلت على الجملة الشرطيّة، وهي مع ذلك غاية لِما قبلها، متعلّقة بـ﴿يَصِفُونَ﴾،[٥] وما بينهما اعتراض مؤكِّد للإغْضاء بالاستعاذة به تعالى مِن الشياطين أن يُزِلُّوهُ عليه السلام عن الحِلم، ويُغْرُوه على الانتقام، لكن لا بمعنى أنّه العامل فيه لفساد المعنى؛ بل بمعنى أنّه معمول لمحذوف يدلّ عليه ذلك. وتعلّقها بـ﴿كَٰذِبُونَ﴾[٦] في غاية البعدِ لفظًا ومعنى.

أي: يستمرّون على الوصف المذكور حتّى إذا جاء أحدَهم -أيّ أحدٍ كان- الموتُ الذي لا مردّ له وظهرت له أحوال الآخرة ﴿قَالَ﴾ تحسّرًا على ما فرّط فيه مِن الإيمان والطاعة: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ أي: رُدَّني إلى الدنيا. و"الواو" لتعظيم المخاطَب، وقيل: لتكرير قوله: "ارجِعني"، كما قيل في:

قِـــفَـــا نَـــبْـــكِ...[٧]

ونظائرِه.

---

١ م س - بأن يعوذ به تعالى مِن حضورهم بعد ما أُمر بالعَوذ به مِن همزاتهم للمبالغة في التحذير عن ملابستهم. وإعادة الفعل [«صح» في هامش م س].

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٠٢/٣.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٠٢/٣.

٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٥/٤.

٥ المؤمنون، ٩٦/٢٣.

٦ المؤمنون، ٩٠/٢٣. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٠٢/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٥/٤.

٧ مِن قول امرئ القيس في معلّقته:

قِفا نَبْكِ مِن ذِكرى حبيبٍ ومَنزِلِ
بسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخولِ فحَومَلِ

ديوان امرئ القيس، ص ٨. قال الزوزني: «يجوز أن يكون المراد به: قف قف، فإلحاق الألف أمارة دالّة على أن المراد تكرير اللفظ». شرح المعلّقات السبع للزوزني، ص ٣٥.

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ﴾ أي: في الإيمان الذي تركته. لم يَنظمه في سِلك الرجاء كسائر الأعمال الصالحة بأن يقول: لعلّي أُومِن فأعمل... إلخ للإشعارِ بأنّه أمر مقرَّر الوقوع، غنيٌّ عن الإخبار بوقوعه / قطعًا، فضلًا عن كونه مرجوّ الوقوع، أي: لعلّي أعمل في الإيمان الذي آتي به البتّة عملًا صالحًا. [١٤٩ظ]

وقيل: فيما تركته مِن المال، أو مِن الدنيا. وعنه عليه السلام: «إذا عاين المؤمِن الملائكة قالوا: "أَنُرجعك إلى الدنيا؟" فيقول: "إلى دار الهموم والأحزان؛ بل قُدُومًا إلى الله تبارك وتعالى"، وأمّا الكافر فيقول: "ارجعوني"».[١]

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن طلب الرجعة واستبعاد لها. ﴿إِنَّهَا﴾ أي: قوله: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾...[٢] إلخ ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ لا محالةَ لِتسلّط الحسرة عليه. ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أي: أمامهم، والضميرُ لـ﴿أَحَدَهُمُ﴾، والجمع باعتبار المعنى؛ لأنّه في حكم "كلّهم"، كما أنّ الإفراد في الضمائر الأُوَل باعتبار اللفظ.

﴿بَرۡزَخٌ﴾ حائل بينهم وبين الرجعة ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ يوم القيامة، وهو إقناط كلّي عن الرجعة إلى الدنيا، لِما عُلم أنّه لا رجعةَ يوم البعث إلى الدنيا، وإنّما الرجعة يومئذ إلى الحياة الأخرويّة.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لقيام الساعة، وهي النفخة الثانية التي يقع عندها البعث والنشور. وقيل: المعنى: فإذا نُفخ في الأجساد أرواحها، على أنّ ﴿ٱلصُّورِ﴾ جمع "الصورة"، لا القَرن، ويؤيّده القراءةُ بفتح الواو،[٣] وبه مع كسر الصاد.[٤]

---

١ جامع البيان للطبري، ١٠٧/١٧؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٥٦/٧.

٢ س: ارجعوني.

٣ أي: "الصُّوَرِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٠٣/٣.

٤ أي: "الصَّوَرِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رزين. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٠٣/٣.

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ تنفعهم لزوال التراحم والتعاطف مِن فرط الحيرة واستيلاء الدهشة، بحيث يفرّ المرء مِن أخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه، أو لا أنساب يفتخرون بها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ كما هي بينهم اليوم ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضًا لاشتغال كلٍّ منهم بنفسه. ولا يناقضه قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات، ٣٧/٥٠]؛ لأنّ هذا عند ابتداء النفخة الثانية، وذاك بعد ذلك.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ مَوزونات حسناتِه مِن العقائد والأعمال، أي: فمَن كانت له عقائد صحيحة وأعمال صالحة يكون لها وزن وقدر عند الله تعالى ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكلّ مطلوب، الناجون عن كلّ مَهروب.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ومَن لم يكن له مِن العقائد والأعمال ما له وزن وقدر عنده تعالى، وهم الكفّار لقوله تعالى: ﴿فَلَا[1] نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف، ١٨/١٠٥]، وقد مرّ تفصيل ما في هذا المقام مِن الكلام في تفسير سورة الأعراف.[2] ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ ضيّعوها بتضييع زمان استكمالها، وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها. واسم الإشارة في الموضعين عبارة عن الموصول، وجمعُه باعتبار معناه، كما أنّ إفراد الضميرين في الصِّلتين باعتبار لفظه. ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ بدل مِن الصلة، أو خبر ثانٍ لـ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿تَلْفَحُ / وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ تحرقها. و"اللَّفح" كـ"النفخ"، إلّا أنّه أشدّ تأثيرًا منه. [١٥٠و]
وتخصيص الوجوه بذلك لأنّها أشرف الأعضاء، فبيان حالها أزجر عن المعاصي

---

[1] م ط س: ولا.

[2] الأعراف، ٧/٨.

المؤدّية إلى النار، وهو السرّ في تقديمها على الفاعل. ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ مِن شدّة الاحتراق. و"الكُلُوح": تقلّص الشفتين مِن الأسنان. وقُرئ: "كَلِحُونَ".[١]

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على إضمار القول، أي: يقال لهم تعنيفًا وتوبيخًا وتذكيرًا لِما به استحقّوا ما ابتُلوا به مِن العذاب: ألم تكن آياتي تُتلى عليكم في الدنيا ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ حينئذ.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا﴾ أي: مَلَكتنا ﴿شِقْوَتُنَا﴾ التي اقترفناها بسوء اختيارنا، كما ينبئ عنه إضافتها إلى أنفُسهم. وقُرئ: "شَقْوَتُنَا" بالفتح،[٢] و"شَقَاوَتُنَا" أيضًا بالفتح[٣] والكسر.[٤] ﴿وَكُنَّا﴾ بسبب ذلك ﴿قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ عن الحقّ، ولذلك فعلنا ما فعلنا مِن التكذيب.

وهذا كما ترى اعتراف منهم بأنّ ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم، وأمّا ما قيل مِن أنّه اعتذار منهم بغلبة ما كُتب عليهم مِن الشقاوة الأزليّة،[٥] فمَع أنّه باطل في نفسه -لِما أنّه لا يكتب عليهم مِن السعادة والشقاوة إلّا ما علم الله تعالى أنّهم يفعلونه باختيارهم ضرورةَ أنّ العلم تابع للمعلوم- يردّه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ أي: أَخرِجنا مِن النار وأرجعنا إلى الدنيا، فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنّا عليه مِن الكفر والمعاصي فإنّا متجاوِزون الحدَّ في الظلم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم وأبي حيوة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٣٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان عن عاصم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٣٨.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٣٢٩/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٣٨.

٥ انظر: **تفسير الرازي**، ٢٩٦/٢٣.

ولو كان اعتقادهم أنّهم مجبورون على ما صدَر عنهم لَما سألوا الرجعةَ إلى الدنيا، ولَما وعَدوا الإيمان والطاعة؛ بل قولهم: ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ صريح في أنّهم حينئذ على الإيمان والطاعة، وإنّما الموعود على تقدير الرجعة إلى الدنيا الثباتُ عليهما، لا إحداثُهما.

﴿قَالَ اخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿قَالَ اخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾ أي: اسكتوا في النار سكوتَ هوانٍ، وذِلّوا وانزجِروا انزجارَ الكلاب إذا زُجرَتْ. مِن "خَسأتُ الكلب" إذا زجرتَه "فخَسأ"، أي: انزَجر. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: باستدعاء الإخراج مِن النار، والرجعِ إلى الدنيا.

وقيل: لا تُكَلِّمونِ في رفع العذاب،[1] ويردّه التعليل الآتي. وقيل: لا تُكلّمونِ رأسًا،[2] وهو آخر كلام يتكلّمون به، ثمّ لا كلام بعد ذلك إلّا الشهيق والزفير والعِواء كعِواء الكلب، لا يَفْهَمون ولا يُفهِمون،[3] ويردّه الخطابات الآتية قطعًا.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعليل لِما قبله مِن الزجر عن الدعاء، أي: إنّ الشأن. وقُرئ بالفتح،[4] أي: لِأنَّ الشأن ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ وهم المؤمنون. وقيل: هم الصحابة. وقيل: أهل الصُّفّة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ﴿يَقُولُونَ﴾ في الدنيا ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: اسكتوا عن الدعاء بقولكم: ربّنا... إلخ؛ لأنكم كنتم تستهزئون بالداعين بقولهم: ربنا آمنّا... إلخ، وتتشاغلون باستهزائهم ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ﴾

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٥٨/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٩٩/٣.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٦/٤.

٣ عن الحسن في الكشف والبيان للثعلبي، ٥٨/٧؛ واللباب لابن عادل، ٢٦٤/١٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

أي: الاستهزاءُ بهم ﴿ذِكْرِى﴾ مِن فَرط اشتغالكم باستهزائهم، ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ وذلك غاية الاستهزاء.

﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ استئناف لبيان حُسن حالهم، وأنّهم انتفعوا بما آذَوهم، ﴿بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ بسبب صبرهم على أذيّتكم. وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ ثاني مفعولَي الجزاء، أي: جزيتُهم فوزَهم بمجامع مراداتهم مخصوصين به. وقُرئ بكسر الهمزة[1] على أنّه تعليل للجزاء، وبيانٌ لكونه في غاية ما يكون مِن الحُسن.

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿قَٰلَ﴾ أي: الله عزّ وجلّ، أو الملَكُ المأمور بذلك تذكيرًا لِما لبثوا فيما سألوا الرجوع إليه مِن الدنيا بعد التنبيه على استحالته بقوله: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾... إلخ. وقُرئ: "قُلْ"[2] على الأمر للملَك: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي تدعون أن ترجعوا إليها ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تمييز لِـ﴿كَمْ﴾.

﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصارًا لِمدّة لبثهم فيها ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ أي: المتمكّنين مِن العدّ، فإنّا بما دَهِمَنا مِن العذاب بمَعزِل مِن ذلك، أو الملائكة العادّين لأعمار العباد وأعمالهم. وقُرئ: "العَادِينَ" / بالتخفيف،[3] أي: المتعدّين، فإنّهم أيضًا يقولون ما نقول، كأنّهم الأتباعُ يسمّون الرؤساءَ بذلك لظلمهم إيّاهم بإضلالهم. وقُرئ: "العَادِيِّينَ"،[4] أي: القدماء المعمِّرين، فإنّهم أيضًا يستقصِرون مدّة لبثهم. [١٥٠ظ]

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٢٩/٢.

٢ قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٣٠/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن المفضّل وعن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٠٦/٣.

﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

﴿قَٰلَ﴾ أي: الله تعالى، أو الملَك. وقُرئ: "قُلْ"،[1] كما سبق: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تصديقًا لهم في ذلك ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون شيئًا، أو لو كنتم مِن أهل العلم. والجواب محذوف ثقةً بدلالة ما سبق عليه، أي: لَعلِمتم يومئذ قِلّة لبثكم فيها كما علمتم اليومَ، ولَعمِلتم بموجَبه ولم تُخلِدوا إليها.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ أي: ألم تعلموا شيئًا فحسبتم أنّما خلقناكم بغير حكمة بالغة حتّى أنكرتم البعث؟ فـ﴿عَبَثًا﴾ حال مِن نون العظمة، أي: عابثين، أو مفعول له، أي: إنّما خلقناكم للعبَث، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ عطفٌ على ﴿أَنَّمَا﴾، فإنّ خَلقكم بغير بَعث مِن قَبيل العبَث، وإنّما خلقناكم لِنتعبَّدكم ونجازيكم على أعمالكم. وقُرئ: "تَرْجِعُونَ"[2] بفتح التاء مِن الرجوع.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ استعظامٌ له تعالى ولشئونه التي تصرّف عليها عبادُه مِن البَدء والإعادة والإثابة والعقاب بموجَب الحكمة البالغة، أي: ارتفع بذاته وتنزّه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأحواله وأفعاله، وعن خلوّ أفعاله عن الحِكم والمصالح والغايات الحميدة ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي يحِقّ له المُلك على الإطلاق إيجادًا وإعدامًا، بَدءًا وإعادةً، إحياءً وإماتةً، عقابًا وإثابةً، وكلُّ ما سواه مَملوك له مَقهور تحت ملكوته.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإنّ كلّ ما عداه عبيدُه، ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ فكيف بما تحته ومحاط به مِن الموجودات كائنًا ما كان. ووصفُه بالكرَم إمّا لأنّه منه ينزل الوحي الذي منه القرآن الكريم، أو الخير والبركة والرحمة، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٣٠/٢.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٠٨/٢.

وقُرئ: "الكَرِيمُ" بالرفع[1] على أنّه صفة "الربّ"، كما في قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج، ١٥/٨٥].

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يَعبُدْه إفرادًا أو إشراكًا ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفة لازمة لـ﴿إِلَٰهًا﴾، كقوله تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام، ٣٨/٦]، جيء بها للتأكيد وبناء الحُكم عليه تنبيهًا على أنّ التديّن بما لا دليلَ عليه باطل، فكيف بما شهدَت بديهةُ العقول بخلافه. أو اعتراض بين الشرط والجزاء، كقولك: "مَن أحسنَ إلى زيد لا أحقّ منه بالإحسان فالله مُثيبه".

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ فهو مُجَازٍ له على قدر ما يستحقّه. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: إنّ الشأن... إلخ. وقُرئ بالفتح[2] على أنّه تعليل، أو خبر، ومعناه: حسابُه عدم الفلاح. والأصل: حسابُه أنّه لا يُفلح هو، فوُضع ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ موضع الضمير؛ لأنّ ﴿مَن يَدْعُ﴾ في معنى الجمع، وكذلك "حِسَابُهُ أَنَّهُ لَا يُفْلِحُ" في معنى: حسابُهم أنّهم لا يفلحون.

بُدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين، وخُتِمت بنفي الفلاح عن الكافرين، ثمّ أُمِر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالاستغفار والاسترحام فقيل: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ إيذانًا بأنّهما مِن أهمّ الأمور الدينيّة، حيث أُمِر به مَن قد غُفِر لَه ما تقدّم مِن ذنبه وما تأخّر، فكيف بمَن عَداه.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المؤمنين بشّرته الملائكة بالرَّوح والرَّيحان، وما تَقَرُّ به عينُه عند نزول ملك الموت».[3] وعنه عليه السلام

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كثير وابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٨٣/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

أنّه قال: «لقد أُنزلت عليّ عشر آيات مَن أقامهنّ دخل الجنّة، ثمّ قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون، ١/٢٣] حتّى ختم العشر».[١] ورُوي «أنّ أوّلها وآخرها مِن كنوز الجنّة، مَن عمل بثلاث آيات مِن أوّلها، واتّعظ بأربع مِن آخرها نجا وأفلح».[٢]

---

١ سنن الترمذي، ٥/٣٢٦ (٣١٧٣)؛ المستدرك للحاكم، ١/٧١٧ (١٩٦١).

٢ س + الحمد لله ربّ العالمين. | الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٠٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٩٧. قال الزيلعي: «غريب جدًّا». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/٤٠٩.